

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة الرعد

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
الأستاذ بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

(تابع الجزء الثالث عشر)

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٢ م

﴿ ربنا تقبل منا ، إنك أنت السميع العليم ﴾

(تابع الجزء الثالث عشر)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه .
وبعد : فهذا تفسير تحليلي لسورة « الرعد » ، توخيت فيه أن أبرز
ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من توجيهات سامية ، وآداب عالية ،
وهدايات تامة ، وأحكام حكيمة ، وتراكيب بليغة ...

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، وشفيعا
لنا يوم تلقاه ، إنه - سبحانه - أكرم مشغول ، وأعظم مأمول .

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

المدينة المنورة : ٢٣ من المحرم سنة ١٤٠٢ هـ

١٩ من نوفمبر سنة ١٩٨١ م

المؤلف

محمد السيد طنطاوي

رئيس قسم التفسير بالجامعة الإسلامية

تمهيد بين يدي تفسير سورة الرعد

نريد بهذا التمهيد -- كما سبق أن ذكرنا في تفسير السور السابقة -- إعطاء القارئ الكريم صورة واضحة عن سورة الرعد ، قبل أن نبدأ في تفسيرها آية آية فنقول -- وبالله التوفيق .

١ - سورة الرعد هي السورة الثالثة عشرة في ترتيب المصحف ، فقد سبقتها اثنتا عشرة سورة ، هي سور : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والافاتال ، والتوبة ، ويونس ، وهود ، ويوسف .

وسميت بهذا الاسم منذ العهد النبوي ، ولم يعرف لها اسم آخر سوى هذا الاسم ، ولعل سبب تسميتها بذلك ، ورود ذكر الرعد فيها ، في قوله - تعالى - « ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » (١)

٣ - وعدد آياتها ثلاث وأربعون آية في المصحف الكوفي ، وأربع وأربعون آية في المدني ، وخمس وأربعون في البصري ، وسبع وأربعون في الشامي (٢) .

٤ - والذي يقرأ أقوال المفسرين في بيان زمان نزولها ، يراها أقوالاً ينقصها الضبط والتحقيق .

ف هناك روايات صرحت بأنها مكية ، وأخرى صرحت بأنها مدنيّة ، وثالثة بأنها مكية إلا آيات منها فدنية ، ورابعة بأنها مدنية إلا آيات منها فمكية ...

(١) الآية رقم ١٣ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٣ ص ٧٦ طبعة منير الدمشقي .

قال الألوسي : جاء من طريق مجاهد عن ابن عباس وعلى بن أبي طلحة أنها مكية .

وروى ذلك عن سعيد بن جبير - أيضا - .

قال سعيد بن منصور في سننه ، حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر قال سألت ابن جبير عن قوله - تعالى - « ومن عنده علم الكتاب ، هل هو عبد الله ابن سلام ؟ فقال ؛ كيف وهذه السورة مكية .

وأخرجه مجاهد عن ابن الزبير ، وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس ، ومن طريق ابن جريج وعثمان بن عطاء عنه أنها مدنية .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة أنها مدنية إلا قوله - تعالى - « ولا يزال الذين كفروا تصيهم بما صنعوا قارعة الآية » ، فإنها مكية .

وروى أن من أولها إلى آخر قوله - تعالى - « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال

نزل بالمدينة ، أما باقيا فنزل في مكة » (١) .

هذه بعض الروايات في زمان نزولها ، وهي - كما ترى - المتعارض فيها واضح .

والذي تطمئن إليه النفس ، أن السورة السكرية يبدو بوضوح فيها طابع القرآن المبكي ، سواء أكان ذلك في موضوعاتها ، أم في أسلوبها ، أم في غير ذلك من مقاصدها وتوجيهاتها ...

وأن نزولها - على الراجح - كان في الفترة التي أعقبت موت أبي طالب ، والسيدة خديجة - رضى الله عنها - .

وهي الفترة التي لقي فيها الرسول - صلى الله عليه وسلم - مالتى من أذى المشركين وعنهم ، وطفليهم ...

والذي جعلنا نرجح أن نزولها كان في هذه الفترة ، ما شتمت عليه السورة
الكريمة ، من أدلة متنوعة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، ومن تسليمة
له - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه - كما سنرى ذلك عند تفسيرنا
لآياتها - كذلك ما جعلنا نرجح أن نزولها كان في هذه الفترة ، قول السيوطي
في كتابه الإتقان : « ونزلت بمكة سورة الأعراف ، ويونس ، وهود ،
ويوسف ، والرعد » (١) .

وتدريجنا عند تفسيرنا لسور : يونس ، وهود ، ويوسف - عليهم السلام -
أن هذه السور قد نزلت في تلك الفترة من حياة النبي - صلى الله عليه وسلم -
ونرجح هنا أن نزول سورة الرعد كان في تلك الفترة - أيضا - ، لمناسبة
موضوعاتها لأحداث هذه الفترة .

هـ - عرض إجمالي لسورة الرعد :

(أ) لقد افتتحت السورة الكريمة بالثناء على القرآن الكريم ، وبالإشارة
إلى إعجازه ، ثم ساقَت ألوانا من الأدلة على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته
وعظيم حكمته ...

« الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر
الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات لعلمكم
بلقاء ربكم ترقنون ... »

(ب) ثم حكّت السورة بعد ذلك جانباً من أقوال المشركين في شأن البعث ،
وردت عليهم بما يكبتهم فقال - تعالى : « وإن تعجب فعجب قولهم ، أئذا كنا
تراباً أئنا لنفخن في نفثهم ، أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في
أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ... »

(ج) ثم بينت السورة الكريمة ما يدل على كمال علمه - تعالى - وعلى عظم

(١) الإتقان في علوم القرآن ج ١ ص ١٢ طبعة مصطفى الحلبي .

سلطانه ، وعلى حكته في قضائه وقدره فقال - تعالى - : « الله يعلم ما تحمل كل
أفئدة وما تفيض الأرحام وما تزداد . وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة
العظيم المعتال ... »

(د) ثم أمر - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يسأل المشركين
سؤال تم - كم وتوبيخ عن خلق السموات والأرض فقال - تعالى - : « قل من
رب السموات والأرض قل الله - قل أفتأخذتم من دونه أولياء لا يملكون
لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى
الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلاقوا خلقه ، فتشابه الخلق عليهم ،
قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ، »

(هـ) ضربت السورة الكريمة مثلين للحق والباطل . وعقدت مقارنة بين
مصير أتباع الحق ، ومصير أتباع الباطل فقال - تعالى - : « أفمن يعلم أن
ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، إنما يتذكر أولوا الألباب . الذين
يوفون بعهده الله ولا يفتنون الميثاق ... »

(و) ثم حكمت السورة الكريمة بعض المطالب المتعنتة التي طلبها المشركون
من النبي - صلى الله عليه وسلم - وردت عليهم بما يحق باطلهم ، ويزيد المؤمنين
إيماناً على إيمانهم فقال - تعالى - :

« ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ، قل إن الله يضل من
يشاء ويهدي إليه من أناب . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر
الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ... »

(ز) ثم حكمت السورة الكريمة لنا آخر من غلوهم في كفرهم ، ومن
مقترحاتهم الفاسدة ، حيث طالبوا من النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يسير لهم
بالقرآن جبال مكة ليتفسيحوا في أرضها ، ويفجر لهم فيها الأنهار والعيون
ليزرعوها ، ويحيي لهم الموتى ليخبروهم بهدوه ... فقال - تعالى - : « ولو أن

قرأنا سيرت به الجبال ، أو قطعت به الأرض ، أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا ، أفلم ييأس الذين آمنوا أن لويشاء الله لهدى الناس جميعا ... ،

(ح) ثم ختمت السورة السكريمة ببيان حسن عاقبة المتقين ، وسوء عاقبة المكذبين ، وبالثناء على القرآن الكريم ، وبالسلمية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من أعدائه وبالشهادة له بالرسالة ، وبتهديد المشركين بالعذاب الآليم ، فقال - تعالى - « مثل الجنة التي وعد المتقون أكملها دائم وظلها ، تلك عقي الذين اتقوا وعقي الكافرين النار »

وكذلك أنزلناه حكما عربيا ، ولئن اتبعت أهوامهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق .

ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلناهم أزواجاً وذرية ، وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب ...

ويقول الذين كفروا لست مرسل ، قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب . .

٦ - ومن هذا العرض الإجمالى للسورة السكريمة ، نراها قد اهتمت بالحديث عن موضوعات من أبرزها ما يأتى :

(ا) إقامة الأدلة المتنوعة على كمال قدرة الله - تعالى - ، وعظيم حكمته ... تارة عن طريق التأمل فى هذا الكون وما فيه من سموات مرتفعة بغير عمد ، وأرض صالحة للاستقرار عليها ، وشمس وقر وكواكب مسخرة لمنافع الناس ، وجبال لتثبيت الأرض ، وأنهار لسقى الزرع

« وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . .

وتارة عن طريق علمه المحبط بكل شيء ، فهو العليم بما تنقصه الأرحام وما تزداده في الخلقة وفي المدة وفي غير ذلك ، وهو العليم بأحوال عباده سواء أ كانوا ظاهرين بالأنوار أم مستخفين بالليل .

« الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تفيض الأرحام وما تزداد . وكل شيء عنده بمقدار »

وتارة عن طريق الظواهر السكرانية التي يرسلها - سبحانه - لعباده خوفا وطمعا ، « هو الذي يرسم البرق خوفا وطمعا ويرسل السحاب الثقيل . وينسخ الرعد بجمده والملائكة من خيفته »

وتارة عن طريق العطاء والمنع لمن يشاء من عباده : « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . . . »

وتارة عن طريق المصائب والقوارع التي ينزلها - سبحانه - بالكافرين « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد . »

(ب) لإثبات أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صادق فيما يبلغه عن ربه ، والرد على المشركين فيما طلبوه من النبي - صلى الله عليه وسلم - من مطالب متعنتة ، ومن الآيات التي وردت في ذلك قوله - تعالى - :

« تلك آيات الكتاب ، والذي أنزل إليك من ربك الحق ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . »

« ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ، إنما أنت منذرولسلك قوم هاد . »

« أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب . »

« كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أُمم لتتلو عليهم «دى أرحمنا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن قل هوربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب . »
« والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه . قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو وإليه مآب . »

٣ - تثبت فؤاد النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وتسليته عما لحقه من أذى ، وذلك لأن السورة الكريمة - كما سبق أن أشرنا - مكية ، وأنها - على الراجح - قد نزلت في فترة اشتد فيها لإعراض المشركين عن دعوة الحق وتكذيبهم لها ، وتطاولهم على صاحبها - صلى الله عليه وسلم - ومطابتهم له بالخوارق التى لا يؤيدها عقل سليم . . .

فنزلت السورة الكريمة لتثبت الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأتباعه ، ولتمزق أباطيل المشركين عن طريق حشود من الأدلة على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه .

ومن الآيات التى وردت فى ذلك قوله - تعالى - : « وإن تعجب فعجب عجب قولهم إذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد . أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . ويستعجلونك بالسيفة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلثات ، وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب . »

وقوله - تعالى - : « ولقد استمضى - برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب . »

وقوله - تعالى - « وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعا ، يعلم ما تكسب كل نفس ، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار . » ويقول الذين كفروا لست مرسلنا قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب ، هذا بعض الموضوعات التى نرى السورة الكريمة قد اهتمت بتفصيل الحديث عنها .

وہناك موضوعات أخرى يراها كل من تأمل آياتها بفكر سليم، وعقل
قويم، وروح صافية...

نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا فهم كتابه، والعمل بما فيه من آداب
وأحكام، وهدايات...

وصلی اللہ علی سیدنا محمد وعلی آلہ وصحبہ وسلم

التفسير

قال الله تعالى : « الر . تلك آياتُ الكتابِ والذي أنزلَ إليك من ربِّك الحقُّ ، ولا تكنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) الله الذي رفعَ السمواتِ بنيرِ حمْدٍ ترونها ، ثم استوى على العرشِ ، وسخرَ الشمسَ والقمرَ كلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، يدبُّرُ الأمرَ يَفْصَلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وهو الذي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَمَلَ فِيهَا رِوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ، ومن كلِّ الثمراتِ جعلَ فيها زَوْجِينَ اثْنَيْنِ ، يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وفي الأرضِ قِطْعٌ مُّتجاوِرَاتٌ وَجَنَاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ، صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ، وَنَفْضُلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) » .

لقد افتتحت سورة الرعد ببعض الحروف المقطعة ، وقد سبق أن تكلمنا عن آراء العلماء في هذه الحروف في سور : البقرة وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ، وهود ، ويوسف .

وقلنا ما ملخصه : إن أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت في افتتاح بعض السور على سبيل الإيقاظ والتنبيه إلى إعجاز القرآن .

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله :

هاكم القرآن ترويه هؤلاءنا من كلام هو من جنس ما تؤلفون من كلامكم ، ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم .

فإن كنتم في شك من كونه منزلا من عند الله فهاؤا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك ، فإن لم تستطيعوا أن تأقوا بمثله فهاؤا عشر سور من مثله ، فإن لم تستطيعوا فهاؤا سورة واحدة من مثله ... ومع كل هذا التساهل معهم في التحدي ، فقد عجزوا وانقلبوا خاسرين ، فثبت بذلك أن هذا القرآن من عند الله - تعالى .

و ذلك ، اسم إشارة ، والمشار إليه الآيات . والمراد بها آيات القرآن الكريم ، ويدخل فيها آيات السورة التي معنا .

والمراد بالكتاب : القرآن الكريم الذي أنزله - سبحانه - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - لايخرج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام .

وقوله : « والذي أنزل إليك من ربك الحق » تنويه بشأن القرآن الكريم ، ورد على المشركين الذين زعموا أنه أساطير الأولين .

أي . تلك الآيات التي نقرأها عليك - يا محمد - في هذه السورة هي آيات الكتاب الكريم ، وما أنزله الله - تعالى - عليك في هذا الكتاب ، هو الحق الخالص الذي لا يلبس به باطل ، ولا يحوم حول صحته شك أو التباس .

وفي قوله - سبحانه - « من ربك » مزيد من التلطف في الخطاب معه - صلى الله عليه وسلم - ، فسكاته - سبحانه - يقول له : إن ما نزل عليك من قرآن هو من عند ربك الذي تعهدك بالرعاية والتربية حتى بلغت درجة السكال ، واسم الموصول الذي ، مبتدأ ، والجملة بعده صلة ، والحق هو الخصم . . .

وقوله « ولكن أ كثر الناس لا يعلمون ، استدرأك لبیان ، ذف أ كثر الناس من هذا القرآن الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أى : لقد أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن بالحق ، ولكن أ كثر الناس لا يؤمنون به ، لأنظماس بصائرهم ، واستيلاء العناد على نفوسهم . . .

وفى هذا الاستدراك ، مدح لتلك القلة المؤمنة من الناس ، وهم أولئك الذين فتجوا قلوبهم للحق منذ أن وصل إليهم ، فآمنوا به ، واعتصموا بحبله . ودافعوا عنه بأموالهم وأنفسهم وعلى رأس هذه القلة التى آمنت بالحق منذ أن بلغها : أبو بكر الصديق وغيره من السابقين إلى الإسلام .

ثم أقام — سبحانه — الأدلة المتنوعة — عن طريق المشاهدة — على كمال قدرته ، وعلى وجوب إخلاص العباد له فقال — تعالى — « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، .

والعمد : جمع عماد ، وهو ما تقام عليه القبة أو البيت .

وجملة « ترونها » فى محل نصب حال من السموات .

أ : الله — سبحانه — هو الذى رفع هذه السموات الهائلة فى صنعها وفى ضخامتها ، بغير مستند يستند لها ، وبغير أعمدة تعتمد عليها ، وأنتم ترون ذلك بأعينكم بجلاء ووضوح .

والمراد بقوله « رفع » أى خلقها مرتفعة منذ البداية ، وليس المراد أنه — سبحانه — رفعها بعد أن كانت منخفضة .

ولاشك أن خلق السموات على هذه الصورة من أ كبر الأدلة على أن لهذا الكون خالقا قادرا حكما ، هو المستحق للعبادة والطاعة .

وقوله — سبحانه — « ثم استوى على العرش » معطوف على ما قبله ، وهو دليل آخر على قدرة الله — تعالى — عن طريق الغائب الهائل الذى تتقاصر دونه المدارك ، بعد أن أقام الأدلة على ذلك عن طريق الحاضر المشاهد .

الاستواء في اللغة يطلق على معان منها الاستقرار كما في قوله - تعالى -
 « واستوت على الجودي ، أي : استقرت ، وبمعنى الاستيلاء والقهر ... »
 وعرش الله - تعالى - مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم - كما يقول الراغب - .
 وقد ذكر لفظ العرش في إحدى وعشرين آية ، كما ذكر الاستواء على
 العرش في سبع آيات من القرآن الكريم .

والمعنى : ثم استوى على العرش استواء يليق بذاته - تعالى - بلا كيف
 ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل ، لإستحالة اتصافه - سبحانه - بصفات المحدثين .
 قال الإمام مالك - رحمه الله - : الكيف غير معقول ، والاستواء غير
 مجبول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر نعمه على عباده فقال : « وسخر الشمس
 والقمر كل يجري لأجل مسمى ، . »
 والتسخير : التذليل والخضوع .

أي : أن من مظاهر فضله أنه - سبحانه - سخر ذلك وأخضع لقدرته الشمس
 والقمر ، بأن جعلهما طائعين لما أراده منهما من السير في منازل معينة ، ولأجل
 معين محدد لا يتجاوزانه ولا يتهديان به ، بل يقفان عند نهاية المدة التي حددتها
 - سبحانه - لوقوفهما وأفولهما .

قال - تعالى - « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق
 النهار ، وكل في فلك يسبحون » (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية السكرية بقوله : « يدبر الأمر ، يفصل
 الآيات ، اهلكم بالقاف . وبكم توقنون ، . »

وتدبير الأمر : تصرفه على أحسن الرجوه وأحكمها وأكملها .

والآيات : جمع آية . والمراد بها هنا : ما يشمل الآيات القرآنية ، والبراهين الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته - سبحانه -

أى . أنه - سبحانه - يقضى ويقدو ويتصرف فى أمر خلقه على أكمل الوجوه وأنه - سبحانه - ينزل آياته القرآنية واضحة مفصلة ، ويسوق الأدلة الدالة على وحدانيته وقدرته بطرق متعددة ، وبوجوه متنوعة .

وقد فعل - سبحانه - ما فعل - من رفعه السماء بلا عمد ، ومن تسخير القمر والشمس والقمر ، ومن تدبيره لأمر خلقه ، ومن تفصيله الآيات لعلمكم عن طريق التأمل والتفكير فيها خلق ، توفنون بلفاته ، وتعتقدون أن من قدر على إيجاد هذه المخلوقات العظيمة ، لا يعجزه أن يعيدكم إلى الحياة بعد موتكم ، لئى يحاسبكم على أعمالكم .

وقال - سبحانه - « يدبر » و « يفصل » بصيغة المضارع . وقال قبل ذلك « رفع السموات » و « سخر الشمس والقمر » بصيغة الماضى . لأن التدبير للأمر ، والتفصيل للآيات ، يتجددان بتجدد تعلق قدرته - سبحانه - بالمقدورات .

وأما رفع السماوات ، وتسخير الشمس والقمر ، فهى أمور قد تمت واستقرت دفعة واحدة .

وبعد أن ذكر - سبحانه - بعض مظاهر قدرته فى عالم السموات ، أتبعه بذكر بعض هذه المظاهر فى عالم الأرض فقال - تعالى - « وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » والمدة : البسط والسعة ، ومنه ظل « يد يد أى متسع .

والرواسى : الجبال مأخوذة من الرسو ، وهو ثبات الأجسام الثقيلة ، يقال : رسي الشيء يرسو رسوا ورسوا . إذا ثبت واستقر ، وأرسيه التود فى الأرض إذا أثبتته فيها .

ولفظ رواسى : صفة لموصوف محذوف ، وهو من الصفات التى تقضى عن ذكر موصوفها .

والأنهار : جمع نهر ، وهو يجري الماء الفائض ، ويطلق على الماء السائل على الأرض .

والمراد بالثمرات : ما يشتملها هي وأشجارها ، وإنما ذكرت الثمرات وحدها ، لأنها هي موضع المنفعة والمبرة .

والمراد بالزوجين : الذكر والأنثى ، وقيل المراد بهما الصنفان فى اللون أو فى الطعم أو فى القدر وما أشبه ذلك .

والمعنى : وهو - سبحانه - الذى بسط الأرض طولا وعرضا إلى المنى الذى لا يدركه البصر ، ليتيسر الاستقرار عليها .

ولا تنافى بين مدها وبسطها ، وبين كونها كرية ، لأن مدها وبسطها على حسب رؤية العين . وكريتها على حسب الحقيقة .

وجعل فى هذه الأرض جبالا ثوابت راسخات . لتمسكها من الاضطراب وجعل فيها أيضا - أنهارا ، لينتفع الناس والحيوان وغيرهما بمياه هذه الأنهار .

وجعل فيها كذلك من كل نوع من أنواع الثمرات ذكرا وأنثى .

قال صاحب الكشف : أى خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين حين مدها ، ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوعت .

وقيل : أراد بالزوجين : الأسود والأبيض ، والجلو والحامض ، والصغير والكبير ، وما أشبه ذلك من الأوصاف المختلفة (١) .

وقال صاحب الظلال : وهذه الجملة تتضمن حقيقة لم تعرف للبشر من طريق علمهم وبحسبهم إلا قريبا ، وهى أن كل الأحياء وأولها النبات تتألف

(١) تفسير الكشف ٢ ص ٣٤٩ طبعة دار المعرفة - بيروت .

عن ذكر وأتى ، حتى النباتات التي كان مظلوناً أنه ليس لها من جنسها ذكر ،
تبين أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر ، فتضم أعضاء الذكر وأعضاء الأنثى
بجمعة في زهرة ، أو متفرقة في العود ... ، (١) .

وقوله : يمشى الليل النهار ، بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - سبحانه -
ورحمته بعباده .

وامنظ « يمشى » من التسمية بمعنى التغطية والستر .

واللهي : أن من مظاهر قدرته - سبحانه - أنه يجعل الليل غاشياً للنهار مغطياً له
فيذهب بنوره وحياؤه ، فيصير السكون مظلاً بعد أن كان مضيئاً : ويجعل
النهار غاشياً لليل ، فيصير السكون مضيئاً بعد أن كان مظلاً ، وفي ذلك من
منافع الناس ما فيه ، إذ بذلك يجمع الناس بين العمل والراحة ، وبين السعي
والسكون .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « إن في ذلك لآيات لقوم
يتفكرون » .

أي : إن في ذلك الذي فعله الله - تعالى - من بسط الأرض طولاً وعرضاً
ومن تثبيتها بالرواسي ، ومن شققها بالأنهار ... لآيات باهرة ، ودلائل ظاهرة
على قدرة الله - تعالى - ورحمته بعباده ، انعم يحسنون التفكر ، ويطلون
التامل في ملكوت السموات والأرض .

ثم ساق - سبحانه - مظاهر أخرى لقدرة فقال - تعالى - : « وفي الأرض
قطع متجاورات .

والقطع : جمع قطعة - بكسر القاف - وهي الجزء من الشيء ، تشبهاً لها
بما يقطع من الشيء .

ومتجاورات ، أي : متلاصقات ومتقاربات .

وليس هذا الوصف مقصودا لذاته ، بل المقصود أنها مع تجاورها وتجاورها مختلفة في أوصافها عما يشهد به ربه - تعالى - العظيمة .

ولذا قال ابن كثير مامدخصه : « وفي الأرض قطع متجاورات ، أى : أراض يجاور بعضها بعضا ، مع أن هذه طيبة تبت ما ينتفع به الناس ، وهذه سيخة مالحة لا تبت شيئا ، وهذه تربتها حمراء ، وتلك تربتها سوداء . . . وهذه محجرة وتلك سهلة . . . والكل متجاورات ، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار ، لا إله إلا هو ولا رب سواه ، (١) .

وقال - سبحانه - « وفي الأرض قطع متجاورات » بإعادة اسم الأرض الظاهر ، ولم يقل وفيها قطع متجاورات كما قال : « جعل فيها زوجين اثنين » في الآية السابقة ، وذلك ليكون كلاما مستقلا ، وليتجدد الأسلوب فيزداد حلاوة وبلاغة . وقوله « وجنات من أعناب وزرع ونخيل » صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل . . . ، بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - سبحانه - ورحمته بعباده .

والجنات : جمع جنة ، والمراد بها البستان ذو الشجر المتكاثف ، الملتصق الأغصان الذى يظل ما تحته ويستتره .

والأعناب : جمع عنب وهو شجر السكرم .

والمراد بالزراع . أنواع الحبوب على اختلاف ألوانها وطعومها وصفاتها وقوله « صنوان » صفة لنخيل ، وهو جمع صنو .

والصنو : الفرع الذى يجمعه مع غيره أصل واحد . فإذا خرجت فخلتان أو أكثر من أصل واحد ، فكل واحدة منهن يطلق عليها اسم صنو .

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٥٣ طبعة دار الشعب .

ويطلق على الاثنين صنوان - بكسر النون - ويطلق على الجمع صنوان
- بضم النون -

والصنو : بمعنى المثل ومنه قيل لعلم الرجل : صنو أبيه ، أى : مثله ،
فأطلق على كل غصن صنو لماثلته للآخر فى تشفرع من أصل واحد ، والأكل ،
لأنهم لما يؤكل من الثمار والحب ،

والمعنى : أن من مظاهر قدرة الله - أيضا - ومن الأدلة على وحدانيته
- سبحانه - أنه جعل فى الأرض بقاعا كثيرة متجاورة ومع ذلك فى مختلفه
فى أوصافها وفى طبيعتها ... وفىها أيضا بساتين كثيرة من أعناب ومن كل
نوع من أنواع الحبوب .

وفىها كذلك نخيل يجمعها أصل واحد فى صنوان ، ونخيل أخرى
لا يجمعها أصل واحد فى غير صنوان .

والكل من الأعناب والزروع والنخيل وغيرها ، يسقى بماء واحد ،
لا اختلاف فى ذاته سواء أكان السقى من ماء الأمطار أم من ماء الأنهار
وجمع وجود أسباب التشابه ، فإنما لعظيم قدرتنا وإحساننا ، بفضل بعضها على
بعض ، آخر منها ، فى الأكل ، أى : فى اختلاف الطعام .

فان الإمام الرازى : قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم ، وزرع
ونخيل صنوان وغير صنوان ، كلها بالرفع عطفا على قوله ، وجنات ، وقرأ
الباقون بالجر عطفا على الأعناب ... (١) .

وخص - سبحانه - النخيل بوصفه بصنوان ، لأن العبرة به أقوى ،
إذ المعاهدة له أكثر من غيره .

ووجه زيادة - وغير صنوان - تجديد العبرة باختلاف الأحوال . واقتصر
- سبحانه - فى التفاضل على الأكل ، لأنه أعظم المنافع .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ٧٠ طبعة عبد الرحمن محمد .

وقوله - سبحانه - ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، فذليل قصد به الحوض على التعقل والتدبر .

أى : إن في ذلك الذى فصل الله - تعالى - أحواله من اختلاف أجناس الثمرات والزرورع فى أشكالها وألوانها وطعموها وأوزانها ... مع أنها نسق بماء واحد ، وتنبت فى أرض متجاورة ، إن فى ذلك كله لدلائل باهرة ، على قدرة الله - تعالى - واختصاصه بالعبادة ، لقوم يستعملون عقولهم فى التفكير السليم . والتأمل النافع .

أما الذين يستعملون عقولهم فيما لا ينفع ، فإنهم يمرون بالعبث والمطافه وهم عنها معرضون .

وبذلك نرى أن الله - تعالى - قد ساق فى هذه الآيات أدلة متعددة ومتنوعة من العالم العلوى والسفلى ، وكلها تدل على عظيم قدرته ، وجليل حكمته . وهذه الأدلة منها :

- ١ - خلقه السموات مرتفعة بغير عمد .
 - ٢ - تسخير الشمس والقمر لمنافع الناس .
 - ٣ - خلقه الأرض بتلك الصورة الصالحة للاستقرار عليها .
 - ٤ - خلقه الجبال فيها لتثبيتها .
 - ٥ - خلقه الأنهار فيها لمنفعة الإنسان والحيوان والنبات .
 - ٦ - خلقه زوجين اثنين من كل نوع من أنواع الثمار .
 - ٧ - معاقبته بين الليل والنهار .
 - ٨ - خلقه بقاعا فى الأرض متجاورة مع اختلافها فى الطبيعة والخواص .
 - ٩ - خلقه أنواعا من الزروع المختلفة فى ثمارها وأشكالها .
 - ١٠ - خلقه النخيل صنوانا وغير صنوان . وجميعها نسق بماء واحد ، ومع كل ذلك فصل - سبحانه - بعضها على بعض فى الأكل .
- وهذه الأدلة يشاهدها الناس بأبصارهم ، ويحسونها بحواسهم ، تبصرة وذكرى لسكل عبد متنب .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله في خلقه ، ساق سبحانه - بعض أقوال المشركين الفاسدة ، وردا عليها بما يدحضها فقال - تعالى - :

« وَإِنْ تَعِجِبْ فَعِجِبْ قَوْلُهُمْ ، أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَنتَ لَقِيَ خَلْقَ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَابْرَأَهُمْ ، وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحُسْنَى وَقَدْ خَلَقْتَ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمُثَلَّثَاتِ ، وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنْ رَبُّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَالْوَلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) » .

قال القرطبي : قوله - تعالى - « وَإِنْ تَعِجِبْ فَعِجِبْ قَوْلُهُمْ ، أَى : إِنْ تَعِجِبْ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ لَكَ بَعْدَ مَا كُنْتَ عَنْدَهُمُ الصَّادِقَ الْأَمِينَ . فَأَعِجِبْ مِنْهُ تَكْذِيبُهُمْ بِالْبَعْثِ - لِأَنَّهُ مِنْ شَاهِدٍ مَا عَدَدَ - سُبْحَانَهُ - مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ . أَبْقَى بَأَنَّهُ مِنْ قُدْرَةٍ عَلَى إِنْشَائِهَا ، كَانَتْ الْإِعَادَةُ أَهْوَنَ شَيْءٍ عَلَيْهِ وَأَيْسَرَهُ ، وَاقَهُ - تَعَالَى - لَا يَتَعِجِبُ ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ التَّعَجُّبُ ، لِأَنَّهُ - أَى : التَّعَجُّبُ - تَغْيِيرُ النَّفْسِ بِمَا تَخْفَى أَسْبَابُهُ ، وَذَلِكَ فِي حَقِّهِ - تَعَالَى - مُحَالٌ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ ذَلِكَ لِتَعِجِبِ مِنْهُ نَبِيِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ (١) » .

وجوز بعضهم أن يكون الخطاب لكل من يصلح له ، أَى : وَإِنْ تَعِجِبْ أَيُّهَا الْعَاقِلُ لَشَيْءٍ . بَعْدَ أَنْ شَاهَدْتَ مِنْ مَظَاهِرِ قُدْرَةِ اللَّهِ فِي هَذَا الْكُونِ مَا شَاهَدْتَ فَارْتَدَّدَ تَعَجُّبًا مِمَّنْ يَنْفَكِرُ بَعْدَ كُلِّ هَذَا قُدْرَتِهِ - سُبْحَانَهُ - عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى .

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٢٨٤ طبعة دار الكتب .

قال الجمل : وقوله « فمجب قو لهم » فيه وجهان : أحدهما أنه خبر مقدم وقو لهم مبتدأ مؤخر ، ولابد من حذف صفة لتتم الفائدة ، أى : فمجب أى عجب قو لهم . أو فمجب غريب قو لهم . والثانى أنه مبتدأ ، وسوغ الابتداء ما ذكرته من الوصف المقدر ، ولا يضر حينئذ كون خبره معرفة « (١) » .

والتنكير فى قوله « فمجب » للتحويل والتعظيم .
وجملة « أنذا كنا ترابا أننا لفى خلق جديد » فى محل نصب مقول القول .

أى : وإن تعجب من شئ - أيها الرسول الكريم - فاعجب من قول أولئك المشركين أنذا صرنا ترابا وعظاما نخرة بعد مرتنا ، أننا بعد ذلك لنعود إلى الحياة مرة أخرى من جديد .

والاستفهام للإسكار ، لاستبعادهم الشديد ، لإعادتهم إلى الحياة مرة أخرى لحاسبتهم على أعمالهم ، كما حكى القرآن عنهم قو لهم فى آية أخرى : « أنذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بميد » (٢) .

وكررت همزة الاستفهام فى « أنذا ، وأننا ... » لتأكيد هذا الإسكار .
ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جزاءهم على هذا القول الباطل فقال - تعالى - « أولئك الذين كفروا بربهم ... »

أى : أولئك المنكرون لقدرة الله - تعالى - على البعث ، هم الذين كفروا بربهم . « أولئك الأغلال فى أعناقهم ، والأغلال : جمع غل . وهو قيد من حديد تشد به اليد إلى العنق ، وهو أشد أنواع القيود .

أى : وأولئك هم الذين توضع الأغلال والقيود فى أيديهم وأعناقهم يوم

(٢) حاشية الجمل على الجلايين ج ٢ ص ٤٩١ طبعة عيسى الحلبي .

(١) سورة ق الآية ٣ .

القيامة ، عند ما يساقون إلى النار بذلة وقهر ، بسبب إنكارهم لقدرة الله على إحادتهم إلى الحياة ، وبسبب جحودهم لنعم خالقهم ورازقهم .

قال - تعالى - : « إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون ، في الحميم ثم في النار يسجرون » (٢) .

وقيل إن الجملة السكرية تمثل لحالهم في الدنيا ، حيث شبه - سبحانه - امتناعهم عن الإيمان ، وعدم التفاتهم إلى الحق ، بحال قوم في أعناقهم قيود لا يستطيعون معها التفاتا أو تحركا .

والأول أولى لأن حمل الكلام على الحقيقة واجب ، مادام لا يوجد مانع يمنع منه ، وهنا لا مانع ، بل صريح القرآن يشهد له .

وقوله « وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، أي : وأولئك الموصوفون بما ذكر ، هم أصحاب النار الذي لا ينفكون عنها ، ولا يخرجون منها .
وكرر - سبحانه - اسم الإشارة ، للتنبية على أنهم أحرىاء بما سيرد بعده من عقوبات .

وجاء به للبعد ، للإشارة إلى بعد منزلتهم في الجحود والضلal .

ثم حكى - سبحانه - لوفا آخر من طغيانهم واستهزائهم برسولهم - صلى الله عليه وسلم - فقال : « ويستعجلونك بالسبيّة قبل الحسنة ، وقد خلّت من قبلهم المثلثات »

والمراد بالسبيّة : الحالة السيئة كالعقوبات والمصائب التي نوء من تنزل به ،

والمراد بالحسنة : الحالة الحسنة كالعافية والسلامة .

والمثلثات : جمع مثلة - بفتح الميم وضم الشاء - كسمرة ، وهي العقوبة

الشديدة الفاضحة التي تنزل بالإنسان فتجعله مثالا لغيره في الزجر والردع والاستعجال : طلب حصول الشيء قبل حلول وقته .

أى أن هؤلاء المشركين بلغ بهم الحال في الطغيان ، أنهم كانوا إذا هددهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعقاب الله إذا ما استمروا في كفرهم ، سخرول منه ، وتهكموا به ، وقالوا له على سبيل الاستهزاء : ائتنا بما تعدنا به من عذاب إن كنتم من الصادقين .

وشبه بهذا قوله - تعالى - : « ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » (١) .

وقوله - تعالى - : « وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » (٢) .

والجلمة السكرية تحكى لونا عجبيا من ألوان توغلم في الجحود والضلال ، حيث طلبوا من الرسول - صلى الله عليه وسلم - تعجيل العقوبة التي توعدهم بها ، بدل أن يطلبوا منه الدعاء لهم بالسلامة والأمان والخير والعافية .

وجملة « وقد خلت من قبلهم المثلثات » ، في موضع الحال ، لزيادة التعجب من جهلهم وطغيانهم ، لأن آثار الأقوام المهلكين بسبب كفرهم مازالت ماثلة أمام أبصارهم ، وهم يمرون عليها في أسفارهم ، فكان من الواجب عليهم لو كانوا يعقلون - أن يعتبروا بها .

وقوله - سبحانه - « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب » ، بيان لرحمة الله - تعالى - بعباده ، ولشدته عقابه للصرين على

(١) سورة العنكبوت الآيتان ٥٢ ، ٥٤ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٢٢ .

الكفر منهم أى : وإن ربك - أيها الرسول الكريم - لذو مغفرة عظيمة للناس مع ظلمهم لأنفسهم ، حيث أظاءوها فى ارتكاب الذنوب والمعاصى .

ومن مظاهر هذه المغفرة أنه - سبحانه - لم يعاجلهم بالعقوبة ، بل صبر عليهم ، وأمهلهم ، لعلمهم يتوبون إليه ويستغفرونه ، ويقلعون عن ذنوبهم .

قال - تعالى - : « ولولا يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة... » (١)

وإن ربك - أيها الرسول الكريم - لشديد العقاب للمصرين على كفرهم وضلالهم ومعاصيهم ،

وقدم - سبحانه - مغفرته على عقوبته . فى مقابل تعجل هؤلاء الكافرين للعذاب ، ليظهر الفارق الضخم بين الخير الذى يريده - سبحانه - لهم ، وبين الشر الذى يريدونه لأنفسهم بسبب انطعاس بصائرهم ...

قال ابن كثير ماملخصه : قوله - سبحانه - « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » .

أى : لأنه ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار .

ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ، ليعتدل الرجا والخوف . كما قال - تعالى - « فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » .

وقال - تعالى - « بئس عبادى أنى أذا الغفور الرحيم » . وأن عذابي هو العذاب الأليم .

وعن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ... » قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « ولولا عفو الله

وتجاوزوه ما هنا أحداً العيش . ولولا وعيده وعقابه لانكل كل أحد (١) .

ثم حكى - سبحانه - لولا آخر من رذائلهم ، وهو عدم اعتدادهم بالقرآن الكريم ، الذى هو أعظم الآيات والمعجزات فقال - تعالى - : « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ... »

و « لولا » هنا حرف تحضيض بمعنى هلا .

ومرادهم بالآية : معجزة كونية كالتي جاء بها موسى من إلقائه النعش فإذا هى حية تسمى ، أو كالتي جاء بها عيسى من إبرائه الأكمة والأبرص وإحيائه الموتى بإذن الله ، أو كما يقترحون هم من جعل جبل الصفا ذهباً ...

لأن القرآن - فى زعمهم - ليس كافياً لسكوته معجزة دالة على صدقه - صلى الله عليه وسلم -

أى : ويقول هؤلاء الكافرون الذين عموا وصموا عن الحق واستعجلوا العذاب ، هلا أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - آية أخرى غير القرآن الكريم تدل على صدقه .

ولقد حكى القرآن مطالبهم المتعنتة فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ... » (٢) .

وقد رد الله - تعالى - عليهم ببيان وظيفة النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : « إنما أنت منذر ... »

أى : أن وظيفة الرسول الكريم - هى إنذار هؤلاء الجاحدين بسوء المصير ، إذا ما لجوا فى طغيانهم ، وأصرروا على كفرهم وعنادهم وليس من وظيفة الإتيان بالخوارق التى طلبوها منك .

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٥٥ .

(٢) سورة الإسراء الآيات ٩٠ وما بعدها .

ولإنما قصر - سبحانه هنا وظيفة النبي - صلى الله عليه وسلم - على الإنذار ، لأنه هو المناسب لأحوال المشركين الذين أنكروا كون القرآن معجزة .

وقوله : ولكل قوم هاد ، أى : ولكل قوم نبي يهديهم إلى الحق والرشاد بالوسيلة التي يراها مناسبة لأحوالهم ، وأنت - أيها الرسول الكريم قد جئتهم بهذا القرآن الهادي للتي هي أفهم ، والذي هو خير وسيلة لإرشاد الناس إلى ما يسعدهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم .

قال الشيخ القاسمي : أو المعنى : ولكل قوم هاد عظيم الشأن ، قادر على هدايتهم . هو الله - تعالى - ، فإليك إلا إنذارهم لا هدايتهم كما قال - تعالى - :
« ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء . . . »

أو المعنى : ولكل قوم هاد ، أى : قائد يهديهم إلى الرشاد ، وهو الكتاب المنزل عليهم ، الداعي بعفوان الهداية إلى ما فيه صلاحهم .

يعنى : أن سر الإرسال وآيته الفريدة إنما هو الدعاة إلى الهدى ، وتبصير سبيله ، والإنذار من الاسترسال في مساقط الردى . وقد أنزل عليك من الهدى أحسنه . فكفى بهدايته آية كبرى وغارقة عظيمة . وأما الآيات المقترحة فأمرها إلى الله وحده . . . » (١) .

• • •

ثم صور - سبحانه - سعة علمه تصويراً عفيفاً ، تفشّر منه الجلود ، وترتجف له المشاعر ، وساق سنة من سننه التي لا تتغير ولا تبدل ، فقال - تعالى - :

« الله يعلم ما تحيل كل أنثى وما تنفيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار (٨) عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال (٩) سواه »

منكم من أسرَّ القولَ ومن جهر به ، ومن هو مستخفٍ بالليلِ
وساربٍ بالنهار (١٠) له مُعَقِّباتٌ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه
من أمر الله ، إنَّ اللهَ لا يُعَيِّرُ ما بقومٍ حتى يغيِّروا ما بأنفسهم ، وإذا
أَرَادَ اللهُ بقومٍ سوءاً فلا مردَّ لَهُ وما لَهُم من دونه من والٍ (١١) .

فقوله - سبحانه - : الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ،
كلام مستأنف مسوق لبيان كمال علمه وقدرته - سبحانه -

« وتغيض » من التغيض بمعنى النقص . يقال : غاض الماء إذا نقص .
و « ما » موصولة والعائد محذوف .

أي : الله وحده هو الذي يعلم ما تحمله كل أنثى في بطنها من علقة أو مضغة
ومن ذكر أو أنثى

وهو وحده - سبحانه - الذي يعلم ما يكون في داخل الأرحام من نقص في
الخلقة أو زيادة فيها ، ومن نقص في مدة الحمل أو زيادة فيها ، ومن نقص في
العدد أو زيادة فيه ...

قال ابن كثير : قوله « وما تغيض الأرحام وما تزداد » قال البخاري :
حدثنا إبراهيم بن المنذر . حدثنا معن ، حدثنا مالك عن عبد الله بن دينار عن
ابن عمر : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : مفاتيح الغيب خمس
لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما في غد إلا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا
الله ، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله ، ولا تدري نفس بأي أرض تموت ، ولا
يعلم متى تقوم الساعة إلا الله . .

وقال العوفي عن ابن عباس « وما تغيض الأرحام » يعني السقط . وما
تزداد ، .

يقول : ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماما . وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ، ومنهن من تحمل تسعة أشهر ، ومنهن من تزيد في الحمل ومنهن من تنقص ، فذلك الغيظ والزيادة التي ذكر الله - تعالى - وكل ذلك يعلمه - سبحانه - ، (١) .

وقوله . « وكل شيء عنده بمقدار » أي : وكل شيء عنده - سبحانه - يقدر وحده لا يجاوزه ولا ينقص عنه ، كما قال - تعالى - « لا ناكل شيء خلقناه بقدر » (٢) وكما قال - تعالى - « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » (٣) فهو - سبحانه - يعلم كمية كل شيء وكيفية وزمانه ومكانه وسائر أحواله .

وقوله « عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » تأكيد لعموم علمه - سبحانه - ودقته .

والغيب : مصدر غاب بغيب ، وكثيراً ما يستعمل بمعنى الغائب ، وهو : ما لا تدركه الحواس ولا يعلم ببداية العقل .

والشهادة : مصدر شهد يشهد ، وهي هنا بمعنى الأشياء المشهودة .

والمتعال : المستعمل على كل شيء في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله - سبحانه - .

أي : أنه - سبحانه - هو وحده الذي يعلم أحوال الأشياء الغائبة عن الحواس . كما يعلم أحوال المشاهدة منها ، وهو العظيم الشأن ، المستعمل على كل شيء .
وقوله - سبحانه - « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو

(١) تفسير ابن كثير المجلد الرابع ص ٣٥٧ طبعة دار الشعب .

(٢) سورة القمر الآية ٤٩ .

(٣) الحجر ٢١ .

مستخف بالليل وسارب بالنهار ، تأكيد آخر لشمول - علمه - سبحانه -
لأحوال عباده .

وسواء : اسم مصدر بمعنى الاستواء ، والمراد به هنا اسم الفاعل . أى :
مستو .

قال الجمل : وفيه وجهان . أحدهما أنه خبر مقدم ، ومن أسر ومن جهر
هو المبتدأ ، وإنما لم يثن الخبر لأنه في الأصل مصدر ، وهو هنا بمعنى مستو .
والثاني أنه مبتدأ ، وجاز الابتداء به لوصفه بقوله « منكم » (١) .

« وسارب بالنهار ، أى : ظاهر بالنهار . يقال سرب في الأرض يسرب
سربا وسروبا أى : ذهب في سربه - يسكون الزاء وكسر السين وفتحها -
أى طريقه .

والعنى : أنه - تعالى - مستو في علمه من أسر منكم القول ، بأن أخفاه في
نفسه ولم يتلفظ به ، ومن جهر منكم بهذا القول بأن أعلنه لغيره .

ومستو في علمه - أيضا - من هو مستتر في الظلمة الكائنة في الليل ، ومن
هو ذاهب في سربه وطريقه بالنهار بحيث يبصره غيره .

وذكر - سبحانه - الاستخفاء مع الليل لكونه أشد خفاء ، وذكر
السروب مع النهار لكونه أشد ظهورا .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر وعائته لعباده فقال - تعالى - « له معقبات
من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ... »

والضمير في « له » يعود إلى « من » في قوله « من أسر القول ومن جهر به »
ومن هو مستخف بالليل ، باعتبار تأويله بالمذكور .

(١) حاشية الجمل على الجلالين > ٣ ص ٩٤ .

و « معقبات ، صفة لموصوف محذوف أى : ملائكة معقبات .

قال الشوكاني : والمعقبات المتناوبات التى يخلف كل واحد منها صاحبه ويكون بدلا منه . وهم الحفظة من الملائكة فى قول عامة المفسرين . قال الزجاج : المعقبات ملائكة يأتى بعضهم بعقب بعض . وإنما قال « معقبات » مع كون الملائكة ذكورا ؛ لأن الجماعة من الملائكة يقال لها معقبة ، ثم جمع معقبة على معقبات ...

قال الجوهري : والمعقب العود بعد البدء . قال الله - تعالى - « ولى مديرا ولم يعقب » (١) .

يقال : عقب الفرس فى عدوه ، أى : جرى بهد جريه . وعقبه تعقبا . أى : جاء عقبه .

و « من » فى قوله « من أمر الله » بمعنى بآء السببية .

والمعنى : لكل واحد من هؤلاء المذكورين عن يسرون القول أو يحمرون به ، ملائكة يتعاقبون عليه بالليل والنهار ويحيطون به من جميع جوانبه لحفظه ورعايته ، ولكتابة أقواله وأعماله ، وهذا التعقيب والحفظ ، إنما هو بسبب أمر الله - تعالى - لهم بذلك .

قال ابن كثير : وفى الحديث الصحيح : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد الذين باتوا فيكم فيسألهم - سبحانه - وهو أعلم بهم . كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون » .

وفى الحديث الآخر : « إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخللا . وعند الجماعة ، فاستحيوهم وأكرمهم » .

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني ٣ ص ٦٩ .

أى : فاستجوا منهم وأكرموا بالستر وغيره .
وقال عكرمة عن ابن عباس : « يحفظونه من أمر الله ، قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه ، (١) » .

ثم ساق - سبحانه - سنة من سنته التي لا تتخلف فقال : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال .. »

أى إن الله - تعالى - قد اقتضت سنته ، أنه - سبحانه - لا يغير ما بقوم من نعمة وعافية وخير بضده ، حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعة إلى معصية ، ومن جميل إلى قبيح ، ومن صلاح إلى فساد ...

وإذا أراد - سبحانه - بقوم سوءا من عذاب أو هلاك أو ما يشبههما بسبب إشارتهم الغي على الرشد ، فلا راد لقضائه ، ولا دافع لعذابه .

وما لهم من دونه - سبحانه - من وال أى من ناصر ينصرهم منه - سبحانه - ويرفع عنهم عقابه ، وبلى أمورهم ويلتجئون إليه عند الشدائد .

فأجلة الكريمة بيان لمظهر من مظاهر عدل الله في شئون عباده ، وتحذير شديد لهم من الإصرار على الشرك والمعاصي وجحود النعمة ، فإنه - سبحانه - لا يعصم الناس من عذابه عاصم ، ولا يدفعه دافع .

قال الإمام ابن كثير : قال ابن أبي حاتم : أوحى الله إلى نبي من أنبياء بنى إسرائيل أن قل لقومك إنه ليس من أهل قرية ، ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله ، ويتحولون منها إلى معصية الله ، إلا تحول الله لهم مما يحبوز إلى ما يكرهون .

ثم قال : إن مصداق ذلك في كتاب الله « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وعن عمير بن عبد الملك قال : خطبنا علي بن أبي طالب على منبر الكوفة فقال : كنت إذا سكنت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ابتدأتني ، وإذا سبأته عن الخبر أنبأتني ، وإذ نه حدثني عن ربه عز وجل - قال : قال الرب : وعزني وجلالي وارتفاعي فوق عرشى ، ما من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتي ، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي ، إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي (١) .

ثم لفت - سبحانه - أنظار عباده إلى أنواع متعددة من الظواهر الكونية الدالة على قدرته ووحدايته . وبين أن هذه الظواهر قد تكون نعماء ، وقد تكون نقما ، وأنها وغيرها تسبح بحمد الله ، وتخضع لسلطانه فقال - تعالى - :

« هو الذى يُرىكم البرق خوفاً وطمعاً ، وينشىء السحاب الثقال (١٢) ويُسبِّح الرعدُ بحمده والملائكة من خيافته ويرسلُ الصواعق فيصيبُ بها من يشاء وهم يُجادِلُون فى الله وهو شديدُ المحالِ (١٣) له دعوة الحق والذين يذعنون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو بباله ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلالٍ (١٤) والله يستجيبُ من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال (١٥) » .

والبرق : ما يراه الراعى من نور لامع يظهر من خلال السحاب - وخوفاً وطمعاً حالان من الكاف فى ربكم ؛ أوهما فى محل المفعول لأجله .
والمعنى : هو الله - تعالى - وحده الذى يربكم بقدرته البرق ، فيترتب على

ذلك أن بعضكم يخاف ما ينجم عنه من صواعق . أرسيل مدرس ، وبعضكم يطمع في الخير من ورائه ، فقد يعقبه المطر النافع ، والغيث المدرار ،

فن مظاهر حكمة الله - تعالى - في خلقه ، أنه جعل السبق علامة إنذار وتبشير معا ، لأنه بالإندار والتبشير يقود النفوس إلى الحق ، وتنفى إلى الرشد وجملة : وينشئ السحاب الثقال ، ببيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - سبحانه - وإنشاء السحاب : تكويته من العدم .

والسحاب : الغيم المنسحب في الهواء ، وهو اسم جنس واحده سحابة ، فذلك وصف بالجمع وهو : الثقال ، جمع ثقيلة .

أي : وهو - سبحانه - الذي ينشئ السحاب المشغل بالماء ، فيرسله من مكان إلى مكان على حسب حكمته ومشيئته .

قال - تعالى - : وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته . حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ، (١) ،

وقوله - سبحانه - : ويسبح الرعد بحمده ، بيان لمظهر ثالث من مظاهر قدرته . والرعد اسم للصوت الهائل الذي يسمع لإثرا اصطكاك الأجرام السماوية بعضها ببعض .

وعطف - سبحانه - الرعد على البرق والسحاب ، لأنه مقارن لهما في كثير من الأحوال . والتسبيح : مشتق من السبح ، وهو المر السريع في الماء أو في الهواء . وسمى الذاكرة - تعالى - مسبحا ، لأنه مسرع في تنزيهه . سبحانه عن كل نقص .

وتسبيح الرعد - وهو هذا الصوت الهائل - بحمد الله ، يجب أن فؤ من به ، ونفوس كيفيته إلى الله - تعالى - لأنه من الغيب الذي لا يعلمه إلا هو

« سبحانه - وقد بين لنا - سبحانه - في كتابه ان كل شيء يسبح بحمده فقال :
« تسبح له السموات » سبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح
بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ، (١) .

وقد فصل القول في معنى هذه الجملة الكريمة الإمام الألوسي فقال - رحمه الله -
ما ملخصه :

وقوله : « ويسبح الرعد » قيل هو اسم للصوت المنفرد ، والمكلام على حذف
مضاف أى : ويسبح ساءعوا الرعد بحمده - سبحانه - رجاء للطر ...

ثم قال : والذي اختاره أكثر المحدثين كون الإسناد حقيقياً بناء على أن
الرعد اسم للملك الذي يسوق السحاب ، فقد أخرج أحد الترمذى وصححه
والناسخى وآخرون عن ابن عباس ، أن اليهود سألوا رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - فقالوا : أخبرنا هذا الرعد ؟ فقال : ملك من ملائكة الله - تعالى -
موكل بالسحاب ، بيديه مخراق ، من فار يزر به السحاب يسوقه حيث أمره الله
- تعالى قالوا : فما هذا الصوت الذى نسمع ؟ قال صوته . قالوا : صدقت ، ...
ثم قال واستشكل بأنه لو كان علماً للملك لما ساع تشكيكه ، وقد نسكرو في
سورة البقرة في قوله - تعالى - وأو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، .

وأجيب بأن له إطلاقين : فأنهما إطلاقه على نفس الصوت ، والتشكيك
على هذا الإطلاق ... (١) .

والذى نراه أن تسبيح الرعد بحمد الله يجب الإيمان به ، سواء أكان الرعد
اسماً لذلك الصوت المخصوص ، أم إسماً للملك من الملائكة ، أما كيفية هذا
التسبيح فردها إلى الله .

قال الإمام الشوكاني : قوله « ويسبح الرعد بحمده » أى : يسبح الرعد نفسه

(١) سورة الإسراء . الآية ٤٤

(٢) راجع تفسير الألوسي ١٣ ص ١٠٦ - طبعة منير الدمشقي -

بحمد الله . أى : متلبساً بحمده وليس هذا بمستبعد ، ولا مانع من أن ينطق به الله بذلك .

وأما على تفسير الرعد بملك من الملائكة فلا استبعاد فى ذلك ، ويمكن ذكره على الأفراد مع ذكر الملائكة بعده لمزيد خصوصيته ، وعناية به ، (٢) .

وقال الإمام ابن كثير : قال الإمام أحمد : حدثنا عفان عن سالم عن أبيه قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا سمع الرعد والصواعق قال : اللهم لا تقبلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا أحمد بن إسحاق ، عن أبي هريرة : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا سمع صوت الرعد قال : سبحان من يسبح الرعد بحمده ، (٣) .

وقوله - سبحانه - : والملائكة من خيفته ، نوع رابع من الأدلة الدالة على وحدانية الله وقدرته .

أى ويسبح الرعد بحمد الله ، ويسبح الملائكة - أيضاً - بحمد الله ، خوفاً منه - تعالى - وإجلالاً لمقامه وذاته .

و من ، فى قوله - تعالى - : من خيفته ، للتعليل أى : يسبحون لأجل الخوف منه . وقوله : ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، نوع خامس [من الظواهر السكونية الدالة على كمال قدرته - سبحانه -]

والصواعق جمع صاعقة ، وهى - كما يقول ابن جرير - كل أمر هائل رآه الرائي أو أصابه ، حتى يصير من هولاء وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وذهاب عقل ، (٤) والمراد بها هنا : النار النازلة من السماء .

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني ٣ ص ٧٢

(٢) تفسير ابن كثير المجلد الرابع ٣٦٣

(٣) تفسير ابن جرير ١ ص ٢٩٠

أى : ويرسل - سبحانه - الصواعق المهلكة فيصيب بها من يشاء
لصابته من خلقه .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أنها نزلت
فى رجل من طواغيت العرب ، بعث النبى - صلى الله عليه وسلم - نفرا
يدعونه إلى الاسلام ، فقال لهم أخبرونى عن رب محمد ما هو ، أمن فضة أم
من حديد ...

فبينما الثمر ينازعونه ، إذا ارتفعت سحابة فمكثت فوق رؤسهم فرعدت
وأبرقت ورمت بصاعقة فاهلك الكافر وهم جلوس .

فرجموا إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فاستقبلهم بعض الصحابة
فقالوا لهم : لاحترق صاحبكم ، فقالوا : من أين علمتم ، قالوا : أوحى الله إلى
النبى - صلى الله عليه وسلم - د ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، (٢)

وضمير الجماعة فى قوله د وهم يجادلون فى الله وهو شديد الحال ، يعود إلى
أولئك الكافرين الذين سبق أن سماق القرآن بعض أقوالهم الباطلة ، وانتهى
منها قولهم : د أنذا كنا ترابا أننا لى خلق جديد ،

والمجادلة : الخاصة والمراجعة بالقول .

والمراد بمجادلتهم فى الله : تكذيبهم للنبى - صلى الله عليه وسلم - فيما أمرهم
به من وجوب إخلاص عبادتهم لله - تعالى - وإيمانهم بيوم القيامة وما فيه
ثواب وعقاب

والمحال : السكيد والمسكر ، والتدبير والقوة ، والعقاب . . . يقال : محل
فلان بفلان - بتقليت الحاء - محلا ومحالا ، إذا كاده وعرضه للهلاك .

قال القرطبي : قال ابن الأعرابي : المحال : المسكر وهو من الله - تعالى -
التدبير بالحق أو لإيصال المسكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر .

وقال الأزهري : المحال : أى القوة والشدة ...

وقال أبو عبيد : المحال : العقوبة والمسكروه ... ، (١)

أى : أن هؤلاء الكافرين يجادلونك - أيها الرسول - فى ذات الله ، وفى صفاته ، وفى وحدانيته ، وفى شأن البعث ، وينكرون ما جنتهم به من بينات والمحال أن الله - تعالى - شديد الماحلة والمكيدة والمعاقبة لأعدائه .

قال - تعالى - : ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكركم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ، (٢) .

ثم بين - سبحانه - أن دعوته هى الدعوة الحق ، وما عداها فهو باطل ضائع ففسال : دله دعوة الحق ، أى : له وحده - سبحانه - الدعوة الحق المطابقة للواقع ، لأنه هو الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وهو الحقيق بالعبادة والالتجاء .

فإضافة الدعوة إلى الحق من إضافة الموصوف الى صفته ، وفى هذه
الإضافة ايدان بملاستما للحق ، واختصاصها به ، وأنها بمنزلة عن الباطل .

ومعنى كونها له : أنه - سبحانه - شرعها وأمر بها .

قال الشوكاني قوله : دله دعوة الحق ، إضافة الدعوة إلى الحق للملاسة .
أى : الدعوة الملاسة للحق ، المختصة به التى لا مدخل للباطل فيها بوجه من الوجوه ...

(١) راجع تفسير القرطبي ج ٩ ص ٢٩٩

(٢) سورة النمل الآيتان ٥٠ ، ٥١

وقيل : الحق هو الله - تعالى - والمعنى : أن الله - تعالى - دعوة المدعو الحق وهو الذى يسمع فيجيب .

وقيل : المراد بدعوة الحق ها هنا كلمة التوحيد والإخلاص . والمعنى : الله من خلقه أن يوحده ويخلصوا له العبادة .

وقيل : دعوة الحق ، دعاؤه - سبحانه - عند الخوف ، فانه لا يدعى فيه سواه ، كما قال - تعالى - وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ،

وقيل : الدعوة الحق ، أى : العبادة الحق فإن عباد الله هى الحق والصدق ،^(١) ثم بين - سبحانه - حال من يعبد غيره فقال : والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ . إلا كباطط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو بباله ، والمراد بالموصول ، والذين ، الأصنام التى يعبدها المشركون من دون الله .

والضمير فى يدعون ، المشركين ، ورابط الصلة ضمير نصب محذوف أى : يدعونهم .

والمعنى : الله - تعالى - العبادة الحق ، والتضرع الحق النافع ، أما الأصنام التى يعبدها هؤلاء المشركون من غير الله ، فانها لا تجيبهم إلى شئ . يطلبونه منها ، إلا كاجابة الماء لشخص بسط كفيه اليه من بعيد ، طالبا منه أن يبلغه وما الماء ببالغ فم هذا الشخص الاحق ، لأن الماء جماد لا يحس ولا يسمع . نداه من يناديه .

والمقصود من الجملة السكرية نفى إستجابة الأصنام لما يطلبه المشركون منها تفقيا قاطما ، حيث شبه - سبحانه - حال هذه الآلهة الباطلة عند ما يطلب

المشركون منها ما هم في حاجة اليه ، بحال انسان عطشان ولسكنة غبى أحق لأنه
يمد يده الى الماء طالبا منه أن يصل الى فمه دون أن يتحرك هو اليه ، فلا يصل
اليه شيء من الماء لأن الماء جهاد لا يسمع نداء من يناديه .

ففي هذه الجملة للكرامة تصوير بليغ لخمية وجهالة ، من يتوجه بالعبادة
والدعاء لغرض الله - تعالى -

وأجرى - سبحانه - على الأصنام ضمير العقلاء في قوله ، لا يستجيبون ،
بجراحة للاستعمال الشائع عند المشركين ، لأنهم يعاملون الأصنام معاملة
العقلاء .

ونكر شيئا في قوله ، لا يستجيبون لهم بشيء ، للتحقير . والمراد أنهم
لا يستجيبون لهم أية استجابة حتى ولو كانت شيئا تافها .

والاستثناء في قوله ، الا كباط كفيه الى الماء . . . ، من أعم الأحوال
أى : لا تستجيب الأصنام لمن يطلب منها شيئا ، الا استجابة كما استجابة
الماء للمهوف بسط كفيه اليه يطلب منه أن يدخل فمه ، والماء جهاد لا يشعر
بسط كفيه ولا بعطشه ولا يقدر أن يجيب طالبيه ولو مكث على ذلك طوال
حياته .

والضمير هو ، في قوله ، وما هو ببالغ ، للماء . والهاء في ، ببالغه ، للفم
أى : وما الماء ببالغ فم هذا الباط كفيه .

وقيل الضمير هو ، الباط ، والهاء للماء أى : وما الباط كفيه
ببالغ الماء فمه .

قال القرطبي : وفي معنى هذا المثل ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الذى يدعو لها من دون الله كالظمآن الذى يدعو الماء إلى
فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه ، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبدا
لأن الماء لا يستجيب ، وما الماء ببالغ إليه . قاله مجاهد .

الثاني : أنه كالظلمة التي يرى خيالها في الماء وقد بسط كفه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، ليكذب ظننه وفساد توهمه . قاله ابن عباس .

الثالث : أنه كباسط كفه إلى الماء ليقبض عليه ، فلا يحمد في كفه شيء منه (١) .

وقد ضربت العرب مثلا لمن سعى فيما لا يدركه ، بالقبض على الماء كما قال الشاعر :

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض على الماء ، خافته فروج الأصابع (٢)
وقوله - سبحانه - وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ، أى وما عبادة الكافرين إلا ضلال ، والشجاؤم إليهم في طلب الحاجات ، إلا في ضياع وخسران ، لأن هذه الآلهة الباطلة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، فضلا عن أن تملك ذلك لغيرها .

ثم بين - سبحانه - أن هذا الكون كله خاضع له - عز وجل فقال :
« وقه يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال » .

والمراد بالسجود له - سبحانه - : الإنقياد والخضوع لعظمته .
وظلالهم : جمع ظل وهو صورة الجسم المنعكس إليه نور .

والغدو : جمع غدوه وهو ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس .
والآصال : جمع أصيل وهو ما بين العصر وغروب الشمس .

والمعنى : وقه - تعالى - وحده يخضع وينقاد جميع من في السموات والأرض من الملائكة والإنس والجن وغيرهم .

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٣٠١ .

(٢) تفسير الشوكاني ج ٣ ص ٧٢ .

وقوله ، طوعا وكرها ، منصوبان على الحال من «من» ، أى : أن جميعهم يسجدون لله ، وينقادون لعظمته ، حال كونهم طائعين وراضين بهذا السجود والالتقياد ، وحال كونهم كارهين وغير راضين به ، لأنهم لا يستطيعون الخروج على حكمه لا فى الإيجاد ولا فى الإعدام ، ولا فى الصحة ولا فى المرض ، ولا فى الغنى ولا فى الفقر . . فهم خاضعون لأمره شاءوا أم أبوا .

ويستوى فى هذا الخضوع المؤمن والكافر ، إلا أن المؤمن خاضع عن طوعية بذاته وبظاهره وبباطنه لله - تعالى - .
أما الكافر فهو خاضع لله - تعالى - بذاته ، ومتمرد وجاحد وفاسق عن أمر ربه بظاهره ، والضمير فى قوله - سبحانه - « وظلالهم » يعود على «من فى السموات والأرض» .

أى : الله - تعالى - يخضع من فى السموات والأرض طوعا وكرها ، ويخضع له - أيضا - بالغدو والأصائل ظلال من له ظل منهم ، لأن هذه الظلال لازمة لأصحابها والكل تحت قهره ومشيبته فى الامتداد والتقلص ، والحركة والسكون .
قال - تعالى - « أو لم يروا إلى ما خلق الله من شئ . يتفيا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون » (١) .

وقال - تعالى - : « أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون » (٢) .

ثم وجه - سبحانه - عن طريق نبيه - صلى الله عليه وسلم - أسئلة تهكمية إلى هؤلاء المشركين المجادلين فى ذات الله - تعالى - وفى صفاته ، وساق لهم أمثلة للحق والباطل ، وبين لهم حسن عاقبة المستجيبين لدعوة الحق ، وسوء عاقبة المعرضين عنها فقال - تعالى - .

(١) سورة النحل الآية ٤٨

(٢) سورة آل عمران الآية ٨٣

« قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ . قُلْ أَفَأَتَّخِذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْ يُنْقِصَهُمْ شَيْئًا وَلَا يُزِيدَهُمْ شَيْئًا ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ، أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا نَخْلَهُ فَنَشَبَهُ خَلْقٌ عَلَيْهِمْ ، قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ، فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْخُسْفَى ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ، لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ، أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبئسَ الْمِهَادُ (١٨) » .

قال الفخر الرازي : اعلم أنه - تعالى - لما بين أن كل من في السموات والأرض ساجد له ، عاد إلى الرد على عبدة الأصنام فقال : « قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ، » .

ولما كان هذا الجواب جواباً يقر به المستول ويعترف به ولا ينكره ، أمر - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يكون هو الذاكر لهذا الجواب تنبيهاً على أنهم لا ينكرونه البتة ... (١)

أي : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المشركين ، من رب هذه الأجرام العظيمة العلوية والسفلية ؟

(١) تفسير الفخر الرازي ٩ ، ص ٣١ طبعة عبد الرحمن محمد .

فإذا ما أبرا الرد عليك عنادا وصلفا ، فجاههم بالحقيقة التي لا يستطيعون
سكارها ، وهي أن الله وحده هو رب هذه الأجرام ، لأنه هو خالقها
موجدها على غير مثال سابق .

وقوله - سبحانه - : قل أفخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم
شئاً ولا ضراً ، أمر ثالث منه - تعالى - تنبيه - صلى الله عليه وسلم -
لخاتمهم وتبكيتهم .

فالهمزة للاستفهام التوبيخي ، والهاء للعطف على مقدر بعد الهمزة .
والمعنى : أعلمتم حق العلم أن الله - تعالى - هو الخالق للسموات والأرض ،
تركتم عبادته - سبحانه - واتخذتم من دونه أولياء ، أى نصراء عاجزين ،
لا يملكون لأنفسهم - فضلاً عن أن يملكوا لغيرهم - . نفعا بجلوبه لها ،
لا ضراً يدفعون عنها .

وجملة لا يملكون ، صفة لأولياء : والمقصود بها تنبيه السامعين للنظر
في تلك الصفة ، فإثمهم إن أحسنوا التفكير في هؤلاء الأولياء ، أيقنوا أنهم
أحق من أن يلتفت إليهم ، فضلاً عن أن يطلبوا منهم شيئاً .

ثم أمره - سبحانه - للمرة الرابعة أن يبرهن لهم على بطلان معتقداتهم
عن طريق ما هو مشاهد بالخواس فقال : قل هل يستوى الأعمى والبصير ،
أم هل نستوى الظلمات والنور .

أى . قل لهم - أيضاً - أيها الرسول الكريم ، كما أنه لا يستوى في عرف
كل عاقل الأعمى والبصير ، والظلمات والنور . فكذلك لا يستوى الكفر
والإيمان ، فإن الكفر انطباع في البصيرة ، وظلمات في القلب ، أما الإيمان
فهو نور في القلب وإشراق في النفس .

فالمراد بالأعمى الكافر وبالبصير المؤمن ، كما أن المراد بالظلمات الكفر
، بالنور الإيمان .

وعبر القرآن الكريم في جانب الظلمات بصيغة الجمع ، وفي جانب النور بصيغة الإفراد ، لأن النور واحد ومن نتائجه الكشف والظهور ، وتعدد أسبابه لا يغير حقيقة .

أما الظلمة فإنها متنوعة بمقوع أسبابها ، فهناك ظلمة الليل ، وهناك ظلمة الدجون ، وهناك ظلمة القبور ، وهناك ظلمة العقول التي كان من نتائجها تعدد أنواع الكفر والضلال ، كما هو الحال في شأن اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من الذين انحرفوا عن طريق الحق .

ثم انتقل - سبحانه - إلى التهمك بهم عن طريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة لإعراضهم ، وإهمالاً لشأنهم فقال - تعالى - : أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقة فتشابه الخلق عليهم . . .

وأم دنا بمعنى بل ، والاستفهام للإنكار .

أى : إنهم ما اتخذوا لله - تعالى - شركاء يخلقون مثل خلق الله - تعالى - حتى نقول إن ما خلقوه تشابه مع خلقه - تعالى - فليتمس لهم شيئاً من العذر ولكنهم اتخذوا معه - سبحانه - آلهة أخرى . لأن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه

فأجلمة الكريمة تنعى عليهم جهلهم . حيث عبدوا من دون الله مخلوقاً مثلهم ، وتنفى أى عذر يعتذرون به يوم يذاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم . .

وقوله : د كخلنه ، فى معنى المفعول المطلق . أى : خلقوا خلقاً شبيهاً بما خلقه الله - تعالى - .

وجملة « فتشابه » معطوفة على جملة « خلقوا » .

ثم أمر - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - المرة الخامسة بأن يقذفهم

بالحق الذى يدفع باطلهم فقال - تعالى - « قل الله خالق كل شئ ، وهو الواحد القهار » .

أى : قل لهم - أبها الرسول الكريم - : الله - تعالى - هو الخالق لكل شئ فى هذا الكون ، وهو - سبحانه - الواحد الأحد الفرد الصمد ، القهار لكل ما سواه ، والغالب لكل من غلبه .

ثم ضرب - سبحانه - مثلين للحق هما الماء الصافى والجوهر النقى اللذان ينتفع بهما ، ومثلين للباطل هما زبد الماء والجوهر اللذان لا نفع فيهما فقال - تعالى - : أنزل من السماء ماء فساليت أودية : بقدرها ، فاحتمل السيل زبدا رابيا

والأودية : جمع واد وهو الموضع المنسحق الممتد من الأرض الذى يسيل فيه الماء بكثرة ،

والسيل : الماء الجارى فى تلك الأودية .

والزبد : هو الغشاء الذى يعلو على وجه الماء عند اشتداد حركته واضطرابه أو ما يعنو القدر عند الغليان ويسمى بالرغوة والوضر والخبث لعدم فائدته ورابيا : من الربو بمعنى العلو والإرتفاع .

والمعنى : أنزل الله - تعالى - من السماء ماء كثيرا ، ومطرا مدرارا فساليت أودية بقدرها ، أى : فساليت المياه فى الأودية بسبب هذا الإنزال ، بمقدارها الذى حدده الله - تعالى - وإقتضته حكمته فى نفع الناس .

أو بمقدارها قلة وكثرة ، بحسب صغر الأودية وكبرها ، وإتساعها وضيقها ، فاحتمل السيل زبدا رابيا ، أى خمل الماء السائل فى الأودية بكثرة وقوة ، غشاء عاليا مرتفعا فوق الماء طافيا عليه ، لا نفع فيه ولا فائدة منه .

وإلى هنا يكون قد انتهى المثل الأول ، حيث شبه - سبحانه - الحق

وأهله في الثبات والنفع بالماء الصافي الذي يزيل من السماء ، فتمتلى به الأودية
ويبقى محل لانتفاع الناس به إلى الوقت المحدد في علم الله - تعالى -

وشبه الباطل وشيعته في الاضمحلال وعدم النفع ، بزبد السيل المنتفخ
المرتفع فوق سطح الماء ، فإنه مهما علا ولا رتفع فإنه سرعان ما يضمحل ويبقى
ويذسلح عن المنفعة والفائدة .

ثم ابتداء - سبحانه - في ضرب المثل الثاني فقال : : وما يوقدون عليه
في النار لبغواء حلية أو متاع زبد مثله ،

و من ، في قوله ، وما يوقدون ، لابتداء الغاية ، وما موصولة ،
ويوقدون من الإيقاد وهو جعل الحطب وما يشبهه في النار ليزيد اشتعالها
والجمل في محل رفع خبر مقدم ، وقوله ، زبد ، مبتدأ مؤخر .

والحلية : ما يتحلى به الإنسان من الذهب والفضة وغيرهما .

والمتاع : ما يتمتع به في حياته من الآواني والآلات المتخذة من الحديد
والرصاص وأشباههما .

والضمير في قوله ، مثله ، يعود إلى الزبد في قوله - تعالى - ، زبد
رابيا .

وقد قرأ حمزة والسكسائي وحفص ، يوقدون ، وقرأ الباقر توقدون بالتاء
والضمير للناس ، وأضمر مع عدم سبق ذكره لظهوره .

والمعنى : وشبه بالمثل السابق في خروج الزبد والخيث وطرحه بعيدا
عن الأشياء النافعة ، ما توقدون عليه النار من المعادن والجواهر ، لكي
تستخرجوا منها ما ينفعكم من الحلي والأمتعة المتنوعة ، فإنكم في مثل هذه

الحالة ، تبقون على النقي النافع منها ، وتطرحون الزبد والخبث الذى يلفظه
الكبير ، والذى هو مثل زبد مسيل فى عدم النفع :

فقد شبه - سبحانه - فى هذا المثل الثانى الحق وأهله فى البقاء والنفع
بالمعادن النافعة الباقية ، وشبه الباطل وحزبه فى الفناء وعدم النفع بخبث
الحديد الذى يطرحه كبر الحديد ، ويهمله الناس .

ثم بين - سبحانه - المقصود من ضرب هذه الأمثال فقال : وكذلك
يضرب الله الحق والباطل ،

أى : مثل ذلك البيان البديع ، يضرب الله الأمثلة للحق وللباطل إذا اجتمعا
بأن يبين بأنه لا ثبات للباطل - مهما علا وإنتفخ - مع وجود الحق ، كما
أنه لا ثبات للزبد مع الماء للصافي ، ولا مع المعادن النقية .

والكلام على حذف مضاف والتقدير : يضرب الله مثل الحق ومثل الباطل

وسر الحذف : الأبقاء عن كمال التماثل بين الممثل والممثل به ، حتى لكأن
المثل المضروب هو عين الحق وعين الباطل .

ثم شرع - سبحانه - فى تقسيم المثل فقال : فأما الزبد فيذهب جفاء
وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ،

أى : فأما الزبد الذى لفظه السيل والحديد فيذهب جفاء ، مرميا به ،
مطروحا بعيدا ، لأنه لا تقع فيه .

يقال جفأ الماء بالزبد ، إذا فذفه ورمى به وجفأت الرياح النسيم إذا مزقته
وفرقته ، والجفاء بمعنى الغناء .

وأما ما ينفع الناس من الماء الصافي ، والمعدن النقي الخالى من الخبث
فيمكث فى الأرض ، أى فيبقى فيها ليقتنع الناس به .

وبدأ - سبحانه - بالزبد فى البيان فقال فقال : فأما الزبد فيذهب .. ،

مع أنه متأخر في الكلام السابق لأن الزبد هو المنظور أولاً لا عين الناس ،
أما الجوهر فهو مستتر خلفه لأنه هو الباقي النافع .

أو لأنه جرت العادة في التقسيم أن يبدأ بالمتأخر كما في قوله — تعالى —
« يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » ، فأما الذين اسودت وجوههم ... » (١)
وقوله « كذلك يضرب الله الأتال » ، تفخيم لشأن هذا التمثيل الذي اشتملت
عليه الآية الكريمة .

أى مثل ذلك البيان البديع الذي اشتملت عليه الآية الكريمة ، يضرب الله
الأمثال للناس لعلهم يتفكرون ، فيحملهم هذا التفكير على الإيمان الحق ،
وحسن التمييز بين الخير والشر ، والمعروف والمنكر ، والحق والباطل ...

قال الإمام الشوكاني هذان مثلان ضربهما الله — تعالى — في هذه الآية
للحق والباطل يقول : إن الباطل وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال
وعلاه ، فإن الله — تعالى — سيمحقه ويبطله ويجعل العقوبة للحق وأهله .

كالزبد الذي يعلو الماء فيلقيه الماء ، وكخبث هذه الأجسام ، فإنه وإن علا
عليها فإن الكثير يقذفه ويدفعه ، فهذا مثل الباطل .

وأما الماء الذي ينفع الناس وينبت المراعى فيمكث في الأرض ، وكذلك
النافع من هذه الأجسام فإنه يبقى خالصاً لا شوب فيه ، وهو مثل الحق .
وقال الزجاج : فمثل المؤمن واعتقاده ونفع الإيمان كمثل هذا الماء المنتفع
به في نبات الأرض وحياة كل شيء ، وكمثل نفع الفضة والذهب ومسائر
الجواهر لأنها كلها تبقى منتفعا بها .

ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذي يذهب جفاء ، وكمثل خبث
الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذي لا ينتفع به ، (٢)

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٦

(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٣ ص ٨٥

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك عاقبة أهل الحق ، وعاقبة أهل الباطل فقال - تعالى - : « للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به »

أى للمؤمنين الصادقين ، الذين أطاعوا ربهم فى كل ما أمرهم به أو نهىهم عنه ، المثوبة الحسنى ، وهى الجنة .

فالحسنى يصح أن تكون عطفة لموصوف محذوف ، ويصح أن تكون مبتدأ مؤخرأ ، وخبره « للذين استجابوا لربهم » ،

« والذين لم يستجيبوا له » - سبحانه - ولم ينقادوا لأمره أو نهيه وهم الكفار ، لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ، من أصناف الأموال ، ولهم أيضا « مثله معه لافتدوا به » أى لكان عليهم - مع نفاسته وكثرته - أن يقدموه فداء لا تقسمهم من عذاب يوم القيامة .

فالضمير فى قوله « ومثله معه » يعود إلى ما فى الأرض جميعا من أصناف الأموال وفى ذلك ما فيه من نهويل ما سيقفونه من عذاب أليم جزاء كفرهم وجحورهم .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم فقال : « أولئك لهم سوء الحساب ، أى : أولئك الذين لم يستجيبوا لربهم لهم الحساب السى - الذى لارحة معه ، ولا تساهل فيه .. »

« وما وأهم جهنم » أى ودرجهم الذى يرجعون إليه جهنم .

« وبئس المهاد » أى : وبئس المستقر الذى يستقرون فيه .

والخصوص بالذم محذوف أى : مهادم أو جهنم

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أقامت أوضح الأدلة وأحكمها على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وبيئت حسنة عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المكذبين .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أنه لا يستوي الأعمى والبصير ، ومدح أولى الأسباب بما هم أهل من مدح ، وذم أضعافهم بما يستحقون من ذم ، فقال - تعالى - :

« أَفَن يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْسَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوَفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصُلُّونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيُخَشِّونَ رَبَّهُمْ وَيُخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، وَيُذَرِّعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ، أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا لَمْتَاعٌ (٢٦) » .

قال الإمام الرازي : قوله - تعالى - « أَفَن يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ، ... » ، إشارة إلى المثل المتقدم ذكره - في قوله - تعالى - « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ... » وهو أن العالم بانشيء كالبصير ، والجاهل به كالأعمى ، وليس أحدهما كالآخر ، لأن الأعمى إذا أخذ يمشي من غير

قائد ، فربما يقع في المهالك أما البصير فإنه يكون آمنا من الهلاك والإهلاك ، (١)

والمراد بالأعمى هنا : الكافر الذي إنطمست بصيرته ، فأصبح لا يفرق بين الحق والباطل .

والإستفهام للإنكار والاستبعاد .

والمعنى : أفن يعلم أن ما أنزل إليك - أيها الرسول الكريم - من وحي هو الحق الذي يمدى للتي هي أقوم ، كن هو أعمى القلب ، مطموس البصيرة ؟؟

فألاية الكريمة تنفي بأبلغ أسلوب ، مساواة الذين علموا الحق فاتبعوه ، بمن جهلوه وأعرضوا عنه ، وصحوا آذانهم عن سماعه ..

وقوله : إنما يتذكر أولوا الألباب ، مدح لأصحاب العقول السليمة ، الذين ذكروا بالحق فذكروه ، وآمنوا به ، وتعليل لإعراض الكافرين عنه ، ببيان أن سبب إعراضهم ، أنهم ليسوا أهلا للتذكر ، لأن التذكر إنما هو من شأن أولى الألباب .

والألباب : جمع لب وهو الخالص من كل شيء .

أى : إنما يتذكر وينتفع بالتذكير ، أصحاب العقول السليمة ، وهم المؤمنون الصادقون .

ثم مدح - سبحانه - أصحاب هذه العقول السليمة ، بحملة من الخصال الكريمة فقال : الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ،

وعهد الله : فرائضه وأوامره ونواهيه . والوفاء بها : يتأق باقبا على أمره - سبحانه - وياجتناب ما نهى عنه .

وينقضون : من النقص بمعنى الفسخ والحل لما كان مركبا وموصولا .

والميثاق : العهد الموثق باليمين ، للتقوية والتأكيد .

أى : إنما يتذكر أولوا الألباب ، الذين من صفاتهم أنهم يوقنون بعهد الله - تعالى - ، بأن يؤدوا كل ما كلفهم بأدائه ، ويحتذوا كل ما أمرهم باجتنابه ولا ينقضون شيئاً من العهود والمواثيق التى التزموا بها . وصدر - سبحانه - صفات أولى الألباب ، بصفة الوفاء بعهد الله ، وعدم النقض للمواثيق ، لأن هذه الصفة تدل على كمال الإيمان ، وصدق المزيمة ، وصفاء النفس .

وأضاف - سبحانه - العهد إلى ذاته ، للتشريف وللتحريض على الوفاء به .

وجملة ، ولا ينقضون الميثاق ، تعميم بعد تخصيص ، لتشمل عهودهم مع الله - تعالى - ومع غيره من عباده .

ثم بين - سبحانه صفات أخرى لهم فقال : « والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ... »

أى أن من صفات أولى الألباب - أيضاً - أنهم يصلون كل ما أمر الله - تعالى - بوصله كصلة الأرحام ، وإفشاء السلام ، وإغاثة المحتاج ، والإحسان إلى الجار ...

وقوله « ويخشون ربهم » أى خشية تحملهم على لمقتال أمره واجتناب نهيه ، ويخافون سوء الحساب ، أى : ويخافون أهوال يوم القياسة ، وما فيه من حساب دقيق ، فيحملهم ذلك على أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا .

قال الآلوسى ما ملخصه : وهذا من قبيل ذكر الخاص بعد العام للاهتمام والخشية والخوف قبل بمعنى ...

وفرق الراغب بينهما فقال : الخشية خوف يهوبه تعظيم ، وأكثر ما يكون ذلك عن علم ..

وقال بعضهم : الخشية أشد الخوف ، لأنها الأخوذة من قلوبهم : شجرة خشية ، أى : يا بسة ..

ثم قال الآلوسى : والحق أن مثل هذه الفروق أغلبي لا كلى ... (١)
ثم أضاف - سبحانه - إلى الصفات السابقة لأولى الأبواب صفات أخرى حميدة فقال : والذين صبروا لابتغاء وجه ربهم ، أى : أن من صفاتهم أنهم صبروا على طاعة الله ، وصبروا عن معصيته ، وصبروا على المصائب وآلامها ، صبرا غايته رضا ربهم وخالقهم ، لا رضا أحد سواه .

أى أن صبرهم فى كل مجال يحمد فيه الصبر لم يكن من أجل الرياء أو المباهاة أو المجاملة أو غير ذلك ، وإنما كان صبرهم من أجل رضا الله - تعالى - وطلب ثوابه .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشف بقوله : والذين صبروا ، فيما يصبر عليه من المصائب فى النجوس والأموال ومشاق التكليف ، لابتغاء وجه ربهم ، لا ليقال ما أصبره وأحملة للنوازل ، وأوقره عند الزلازل ، ولا لثلا يعاب بالجزع ، ولثلا يشمت به الاعداء ، كقوله :

وتجلى للسامتين أربهم أنى لريب الدهر لا أتزعزع
ولا لانه لا أثاثل تحت الهلع ، ولا مرد فيه للغائب ...

وكل عمل له وجوه يعمل عليها ، فعلى المؤمن أن ينوى منها ما به كان حسنا عند الله - تعالى - وإلا لم يستحق به ثوابا ؛ وكان فعلا كلا فعلا ، (٢) .

وأقاموا الصلاة ، أى : أدوها فى أوقاتها كاملة الأركان والسنن والأذكار ، بخشوع وإخلاص .

(١) تفسير الآلوسى ج ١٣ ص ١٢٦

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٣٥٧ - بتصرف قليل

« وأنفقوا » بسخاء وطيب نفس ، مما رزقناهم ، أى مما أعطيناهم ، عطاءنا الواسع العميم

« سرأ وعلائية » أى : ينفقون مما رزقناهم سرا . حيث يحسن السر ، كاعطاء من لم يعود الأخذ من غيره ، وينفقون « علائية » حيث تحسن العلانية ، كأن ينفقوا بسخاء في مجال التنافس في الخير ، ليقصدى بهم غيرهم « ويدرون بالحسنة السيئة » والدره : الدفع والطرد . يقال : دراه دراه ، إذا دفعه .

أى أن من صفات أولى الألباب - أيضا أنهم يدفعون بالمعمل الصالح العمل السىء ، كما في قوله - صلى الله عليه وسلم - « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » أو أنهم يدفعون سيئة من أساء إليهم بالإحسان إليه ، أو بالعفو عنه ، متى كان هذا الإحسان أو العفو لا يؤدي إلى مفسدة .

قال صاحب الظلال ما ملخصه : وفي الآية إشارة خفية إلى مقابلة السيئة بالحسنة ، عندما يكون في هذا دره السيئة ودفعها لا إطاعتها واستعلاؤها . فاما حين تحتاج السيئة إلى القمع ، ويحتاج الشر إلى الدفع ، فلا مكان لمقابلتهما بالحسنة ، لتلا بفتش الشر ويتجرأ ويستعل .

ودره السيئة بالحسنة يكون غالبا في المعاملة الشخصية بين المتخاصمين ، فاما في دين الله فلا . .

إن المستعمل العاشم لا يجدى معه إلا الدفع الصارم ، والمفسدون في الأرض لا يجدى معهم إلا الأخذ الحزم ، والتوجيهات القرآنية متروكة لتدبر المواقف ، واستشارة الألباب ، والتصرف بما يرجح أنه الخير والصواب (١)

وجملة ، أولئك لهم عقبى الدار ، بيان للجزاء الحسن ، الذى أعده الله تعالى - لهؤلاء الأخيار ،

والعقبى ، مصدر كالعاقبة ، وهى النشء الذى يقع عقب شئ آخر .
والمراد بالدار : الدنيا ، وعقبها الجنة . وقيل المراد بالدار : الدار الآخرة ، وعقبها الجنة للطائعين ، والنار للعاصين .

أى أولئك الموصوفون بتلك الصفات السكرية ، لهم العاقبة الحسنة وهى الجنة . والجملة السكرية خبر عن الذين يوفون بعهده الله . . . وما عطف عليها :

وقوله - سبحانه - « جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، تفصيل للمنزلة العالية التى أعدها - سبحانه - لهم .

أى : أولئك الذين قدموا ما قدموا فى دنياهم من العمل الصالح ، لهم جنات دائمة باقية ، يدخلونها هم ، ومن صلح ، أى : ومن كان صالحا لدخولها ، من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم . .

أى : من أصولهم وفروعهم وأزواجهم على سبيل التكريم والزيادة فى فرحهم ومسرهم .

وفى قوله - سبحانه - « ومن صلح من آبائهم . . . » دليل على أن هؤلاء الأقارب لا يستحقون دخول الجنة ، إلا إذا كانت أعمالهم سالمة ، أما إذا كانت غير ذلك فإن قرابتهم وحدها لا تنفعهم فى هذا اليوم الذى لا ينفع فيه مال وبقون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .

قال الإمام ابن كثير : وقوله « ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم » أى : يجمع بينهم وبين أحبائهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ، ومن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين ، لتقر أعينهم بهم ، حتى لأنه ترفع درجته الأدنى إلى درجته الأعلى ، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته ، بل

لمتنا من الله وإحساننا ، كما قال - تعالى - « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شيء ، كل امرئ بما كسب رهين » (١) .

وقوله - سبحانه - « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم... » زيادة في تكميلهم ، وحكاية لما تحييتهم به الملائكة .

أى : والملائكة يدخلون على هؤلاء الأوفياء الصابرين... من كل باب من أبواب منازلهم في الجنة ، قائلين لهم : « سلام عليكم ، أى : أمان دائم عليكم » بما صبرتم ، أى : بسبب صبركم على كل ما رضى الله - تعالى -

« فنعم عقبى الدار » أى : فنعم العاقبة عاقبة دنياكم . والخصوص بالمدح محذوف لدلالة المقام عليه ، أى : الجنة .

وفى قوله - سبحانه - « يدخلون عليهم من كل باب » إشارة إلى كثرة قدوم الملائكة عليهم ، وإلى كثرة أبواب بيوتهم ، تكميلاً وتثريفاً وتأييلاً لهم .

وجملة « سلام عليكم ، مقول لقول محذوف ، وهو حال من فاعل يدخلون وهم الملائكة . وهى بشارة لهم بدوام السلامة .

وفى قوله « بما صبرتم » إشارة إلى أن صبرهم على مشاق التكليف ، وعلى الأذى ، وعلى كل ما يحمده فيه الصبر ، كان على رأس الأسباب التى أوصلتهم إلى تلك المنازل العالية .

هكذا ومن الأحاديث التى ذكرها الإمام ابن كثير هنا ، ما رواه الإمام أحمد - بسنده - عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، عن رسول - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟ قالوا : الله

ورسوله أعلم : قال : أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون ،
الذين تسد بهم الثغور ، وتنقى بهم المنكارة ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره ،
لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله لمن يشاء من ملائكته : انتوهم خيوهم .
فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك ، وخير نك من خلقك ، أفنامرنا أن فاني
هؤلاء فنسلم عليهم ؟

قال : إنهم كانوا عبادا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ، وقد سد بهم
الثغور ، وتنقى بهم المنكارة ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره ، فلا يستطيع
لها قضاء . قال : فتأتبهم الملائكة عند ذلك ، فيدخلون عليهم من كل باب
و سلام عليكم بما صبرتم ^(١) ،

وبعد أن ذكر - سبحانه - صفات هؤلاء الأوفياء وما أعد لهم من ثواب
جزيل ، أتبع ذلك ببيان سوء عاقبة المنافقين لهمودهم ، القاطعين لما أمر الله
بوصله . المفسدين في الأرض ، فقال - تعالى - : : والذين ينقضون عهد
الله من بعد ميثاقه ... ،

ونقض العهد : إبطاله وعدم الوفاء به .

وقوله : : من بعد ميثاقه ، زيادة في تشنيع النقص . أي ينقضون عهد الله
- تعالى - ولا يوفون به . من بعد أن أكدوا التزامهم به وقبولهم له .

وقوله : : ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، أي : ويقطعون كل ما أوجب
الله - تعالى - وصله ، ويدخل فيه وصل الرسول - صلى الله عليه وسلم -
بالاتباع والمواالة ، ووصل المؤمنين بالمعاونة والمحنة ، ووصل أولى الأرحام
بالمودة والتعاطف ، فالجمله الكريمة ببيان لحال هؤلاء الأشقياء ، بأنهم كانوا
على الضد من أولئك الأوفياء الأخيار الذين كانوا يصلون ما أمر الله به
أن يوصل .

وقوله « ويفسدون في الأرض » ، بيان لصفة ثالثة من صفاتهم القبيحة .
 أي : أنهم كانوا يفسدون في الأرض عن طريق حرهم لدعوة الحق ،
 واعتدائهم على المؤمنين ، وغير ذلك من الأمور التي كانوا يقترفونها مع أن الله
 - تعالى - قد حرّمها ونهى عنها ،

وقوله - تعالى - : « أولئك لهم الملعنة ولهم سوء الدار » ، إخبار عن العذاب
 الشديد الذي سيلقونه في آخرتهم .

أي : أولئك الموصوفون بتلك الصفات الذميمة ، لهم ، من الله - تعالى -
 « الملعنة » والطرد من رحمته .

« ولهم » فوق ذلك ، النار السيئة وهي جهنم التي لبس فيها إلا ما يسر
 الصائر إليها .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن الغنى والفقر بيده ، وأن العطاء والمنع
 بأمره فقال - تعالى - : « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » . . .
 وبسط الرزق كشاية عن سعته ووفrته وكثرته .

ومعنى « يقدر » يضيق ويقلل .

قال الإمام الشوكاني : لما ذكر - سبحانه - عاقبة المشركين بقوله « أولئك
 لهم الملعنة ولهم سوء الدار » ، كان لقائل أن يقول : قد نرى كثيرا منهم قد وفر
 الله له في الرزق وبسط له فيه .

فأجاب - سبحانه - عن ذلك : « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » فقد
 يبسط الرزق لمن كان كافرا ، ويقتره على من كان مؤمنا ابتلاء وإمتحانا ،
 ولا يبدل البسط على الكرامة ، ولا القبض على الإمامة . . . » (١)

أي : الله - تعالى - وحده هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء من خلقه ،

وهو وحده - أيضا - الذى يضيقه على من يشاء منهم، لحكم هو عليها ، ولا تعلق لذلك بالكفر أو الإيمان ، فقد يوسع على الكافر استدراجا له ، وقد يضيق على المؤمن امتحانا له ، أو زيادة في أجره .

والضمير في قوله : « وفرحوا بالحياة الدنيا » ، يعود إلى مشركي مكة ، وإلى كل من كان على شاكلتهم في الكفر والطغيان .

والمراد بالفرح هنا : الأشر والبطر وجحود النعم .

أى : وفرح هؤلاء السكافرون برهم ، الناقضون لعهودهم ، بما أوتوا من بسطة في الرزق في دنياهم ، فرح بطر وأشر ونسيان للآخرة لافرح سرور بنعم الله ، وشكر له - سبحانه - عليها ، وتذكر للآخرة وما فيها من ثواب وعقاب .

وقوله - سبحانه - « وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع » ، بيان لقلة نعيم الدنيا بالنسبة لنعيم الآخرة .

والمتاع : ما يتمتع به الإنسان في دنياه من مال وغيره لمدة محددة ثم ينقضى أى : إن هؤلاء الفرحين بنعم الله عليهم في الدنيا ، فرح بطر وأشر وجحود ، لن يتمتعوا بها طويلا ، لأن نعيم الدنيا ليس إلا شيئا قليلا بالنسبة لنعيم الآخرة .

وتشكير ، متاع ، للتقليل ، كقوله - تعالى - في آية أخرى : « لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهادة (١) » .

قال الألوسى ماملخصه : قوله « وما الحياة الدنيا في الآخرة » ، أى : كائنة في جنب نعيم الآخرة ، فالجار والمجرور في موضع الحال ، وفي هذه معناها المقايسة وهى كثيرة في الكلام ، كما يقال : ذنوب العبد في رحمة الله - تعالى - كقطرة في بحر ، وهى الداخلة بين مفضلين سابق ، وفاضل لاحق ...

والمراد بقوله «إلا متاع» أى : إلا شيئاً يسيراً يتمتع به كزاد الراعى .
والمعنى : أنهم رضوا بحظ الدنيا معرضين عن نعيم الآخرة ، والحال
أن ما فرحوا به فى جنب ما أعرضوا عنه قليل النفع ، سريع النفاد .

أخرج الترمذى وصححه عن عبد الله بن مسعود قال : نام رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - على حصير ، فقام وقد أثر فى جنبه ، فقلنا يا رسول
الله : لو اتخذنا لك ؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما لى والدنيا ، ما أنا فى
الدنيا إلا كراكب استظل بشجرة ثم راح وتركها » ، (١)

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد بينت صفات المؤمنين وحسن عاقبتهم ،
وصفات الكافرين وسوء نصيرهم . كما وضحت أن الأرزاق بيد الله - تعالى -
يعطيها بسعة لمن يشاء من عباده ، ويعطيها بقلة لغيرهم . . .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض المطالب المنعته التى طلبها الكافرون
من النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ورد عليها بما بطلها ، ومدح المؤمنين
المؤمنين لاطمئنان قلوبهم إلى سلامة دينهم من كل نقص ، وأبأسهم من إيمان
أعدائهم لاستيلاء العناد والجحود على قلوبهم ، فقال - تعالى - :

« ويقول الدين كفرُوا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنْ اللَّهُ
يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ
قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا
وَصَلُّوا الصَّلَاةَ طَوَّيْتُ لَهُمْ وَحْشَنُ . آبِ (٢٩) كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي
أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ أُمَمٌ أَتَوَا عَلَيْهِمُ الذِّكْرَ الَّذِي أُوحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَهُمْ
يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ

أَنْيَبُ (٣٠) وَلَوْ أَنَّ فِرْعَانَ سُمِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ، أَوْ قُطِّمَتْ بِهِ الْأَرْضُ
أَوْ كُتِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لَئِيْلُ الْأَمْرِ جَمِيعًا ، أَفَلَمْ يَبْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ
يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِئَاءُ
مَنْعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ
لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) .

وقوله - سبحانه - ، ، ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ،
حكاية لما طلبه مشركو مكة من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على سبيل
التعنت والطفيان . ومرادهم بالآية : آية كونية كإحياء الموتى ، وإزالة الجبال
من أماكنها . ولولا هذا : سرف تحضيض بمعنى هلا .

أى : ويقول الكافرون على سبيل العناد والجحود ، هلا أنزل على هذا
الرسول آية كونية تدل على صدقه ، كأن يحيى لنا موتانا ، أو أن يحول لنا
جيل الصفا ذهباً ..

وكانهم يرون أن القرآن الذى نزل عليه - صلى الله عليه وسلم - لا يكفي
- فى زعمهم - أن يكون آية ومعجزة شاهدة على صدقه .
وقد أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم بقوله :
« قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أُناب » ،

أى : قل لهم أيها الرسول الكريم على سبيل التعجيب من أحوالهم ، ومن
شدة ضلالهم : إن الله - تعالى - يضل عن طريق الحق من يريد لضلاله ،
لاستحباب هذا الضال العمى على الهدى ، ويهوى إلى صراغته المستقيم ، من
أناب إليه - سبحانه - ورجع إلى الحق الذى جاء به رسوله - صلى الله عليه وسلم - بقلب سليم . وعقل متفتح لمعرفة الصواب والرشاد .

فأجللة الكريمة تعجيب من أقوالهم الباطلة ، ومن غفلاتهم عن الآيات

الباهرة التي أعطاها الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - وعلى رأسها القرآن الكريم الذي هو آية الآيات ، وحض لهم على الإقلاع عما هم عليه من العتو والعتاد .

والإنابة : الرجوع إلى الشيء بعد تردد ، فقد جرت عادة كثير من النفوس البشرية أن يعرض عليها الحق فتتردد في قبوله في أول الأمر ، ثم تعود إلى قبوله واعتناقه بعد قيام الدلائل على صحته وسلامته من الفساد .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : كيف طابق قولهم ، لولا أنزل عليه آية من ربه ، قوله ، قل إن الله يضل من يشاء . . . ؟

قلت : هو كلام يجري مجرى التعجب من قولهم ، وذلك أن الآيات الباهرة والمنكثرة التي أوتها رسول الله - ص - لم يؤتها نبي قبله ، وكنى بالقرآن وحده آية وراء كل آية ، فإذا جحدوها ولم يعتدوا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط ، كان موضعاً للتعجب والاستنكار ، فكأنه قيل لهم : ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كبركم ، إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة في الكفر ، فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أنزلت كل آية ، ويهدى إليه من ، كان على خلاف صفتكم ، أنا ، أقبل إلى الحق وحقيقته دخل في نوبة الخير (١) .

ثم رسم القرآن صورة مشرقة للقلوب المؤمنة ، والجزاء الحسن الذي أعد الله لها فقال - تعالى - « الذين آمنوا ، حق الإيمان ، رتطمئن قلوبهم بذكر الله ، أي : تستقر قلوبهم وتسكن ، بسبب تدبرهم لكلامه المعجز وهو القرآن الكريم وما فيه من هدايات .

وإطلاق التذكير على القرآن الكريم ورد في آيات منها قوله - تعالى -

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٣٥٩ .

« وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون » (١) وقوله - تعالى - « إننا نحن نزّلنا الذكر وإنّ له لحافظون » (٢) .

وقوله : « ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب » أي : ألا بذكره وحده دون غيره من شهوات الحياة تسكن القلوب أنساً به ، ومحبة له .

ويصح أن يراد بذكر الله هنا ما يشمل القرآن الكريم ، ويشمل ذكر الخالق - عز وجل - باللسان ، فإن إجماعه على اللسان ينبه القلوب إلى مراقبته - سبحانه - كما يصح أن يراد به خشيته - سبحانه - ومراقبته بالوقوف عند أمره ونهيهِ .

إلا أن الأظهر هنا أن يراد به القرآن الكريم ، لأنه الأنسب للرد على المشركين الذين لم يكتفوا به كمعجزة دالة على صدقه - صلى الله عليه وسلم - وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه .

واختير الفعل المضارع في قوله - سبحانه - « تطمئنن » مرتين في آية واحدة ، للإشارة إلى تجديد الأطمئنان واستمراره ، وأنه لا يتخلله شك ولا تردد .

وافتححت جملة « ألا بذكر الله تطمئنن القلوب » بأداة الاستفتاح المفيدة للتنبية ، للاهتمام بمضمونها ، وللإغراء بالإكثار من ذكره - عز وجل - ، ولإثارة الكافرين إلى الاتسام بسمّة المؤمنين لتطمئن قلوبهم .

ولانتماني بين قوله - تعالى - « هذا » ألا بذكر الله قطمئن القلوب ، وبين قوله في سورة الأنفال « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم... » أي : خافت . .

(١) سورة الأنبياء الآية ٥٠

(٢) سورة الحجر الآية ٩

لأن وجلهم إنما هو عند ذكر الوعيد والعقاب والطمأنينة عند ذكر الوعد والثواب . أو وجلت من هيئته وخشيته - سبحانه - ، وهو لا ينافي اطمئنان الاعتماد والرجاء .

وقوله - تعالى - « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » بيان للثواب الجزيل الذي أعد - سبحانه - للمؤمنين الصادقين .

وطوبى : مصدر كبشرى وزلنى من الطيب . وأصله طيبى ، فقلبت الياء واوا الوقوعا ساكنة إثر ضمة ، كما قلبت فى موقن وهو من اليقين واليسر .
وقيل : طوبى ، اسم شجرة فى الجنة .

قال ابن كثير مالم يخلصه : قوله « طوبى لهم » ، قال ابن عباس : أى فرح وقرّة عين لهم .

وقال الضحاك : أى غبطة لهم . وقال إبراهيم النخعي : أى . خير لهم .
وقال قتادة : طوبى : كلمة عربية . يقول الرجل لغيره : طوبى لك أى : أصبت خيرا .

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس « طوبى لهم » ، قال : هى أرض الجنة بالحبيشية .

وقال سعيد بن مشجوج « طوبى » اسم الجنة بالهندية .
وروى ابن جرير عن شهر بن حوشب قال : « طوبى : شجرة فى الجنة ، كل شجر الجنة منها . . . »

وهكذا روى عن ابن عباس وأبى هريرة وغير واحد من السلف ، أن طوبى شجرة فى الجنة ، فى كل دار فى الجنة غصن منها ،^(١) .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٧٦ طبعة دار الشعب .

والمآب : المرجع والمنقلب من الأوب وهو الرجوع . يقال : آب بثوب أوبا وإيابا ومآبا إذا رجع .

والمعنى : الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم في آخرتهم ، عيش طيب . وخير كامل ، ومرجع حسن يرجعون به إلى ربهم وخالقهم .

ثم بين - سبحانه - أن إرسال محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى الناس ليس بدعا ، فقد سبقه رسل كثيرون إلى أقوامهم فقال - تعالى - : كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمة لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك ... ،

فالسكاف في قوله ، كذلك ، للتشبيه حيث شبه - سبحانه - إرساله - صلى الله عليه وسلم - إلى الناس ، بإرسال الرسل السابقين إلى أقوامهم .

واسم الإشارة يعود إلى الإرسال المأخوذ من فعل « أرسلناك » ، والمراد بالآية هنا : أمة الدعوة التي أرسل إليها الرسول - صلى الله عليه وسلم - فآمن من آمن من أفرادها ، وكفر من كفر .

أي : كما أرسلنا رسلا سابقين إلى أقوامهم ، أرسلناك يا محمد إلى قومك الذين قد سبقهم أقوام ورسل كثيرون ، لكي تقرأ على مسامعهم هذا القرآن العظيم الذي أوحيناه إليك من لدنا ، وانتبين لهم ما اشتمل عليه من هدايات وتشريعات ، كما بين الرسل الذين سبقوك لأقوامهم ما أمرهم الله - تعالى - . ببيانه .

وفي قوله - تعالى - « قد خلت من قبلها أمة » تعريض بمشركي مكة ، وأنهم إذا ما استمروا في طغيانهم ، فسيصيبهم ما أصاب الأمم الخالية .

وقوله « لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك » المقصود منه تفخيم شأن القرآن الكريم ، وأنه هو المعجزة الكبرى للرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وأن وظيفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - قراءته عليهم قراءة تدبر وإستجابة لما يدعوهم إليه ..

وأن قول المشركين « لولا أنزل عليه آية من ربه ، إنما هو قول بدل على
عنادهم وغباوتهم رجحوا دهم للحق بعد أن تبين .
وجملة « وهم يكفرون بالرحمن ، حاله .

أى : أرسلناك أيها الرسول الكريم إلى هؤلاء الضالين . لتتلوا عليهم
ما ينقذهم من الضلال ، واسكنهم عموا وصحوا عن سماعه ، والحال أنهم يكفرون
بالرحمن أى العظيم الرحمة ، الذى وسعت رحمته كل شيء .

وأثر اختيار اسم الرحمن من بين أسمائه - تعالى - ، للإشارة إلى أن
إرساله - صلى الله عليه وسلم - مبعثه الرحمة كما قال - تعالى - « وما أرسلناك
إلا رحمة للعالمين » (١) .

والرد عليهم فى إنكارهم أن يكون الله - تعالى - رحمانا ، فقد حكى القرآن
عنهم ذلك فى قوله « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن » (٢) .

وقد ثبت فى الحديث الصحيح أنهم لم يرضوا بكتابة هذا الإسم الكريم
فى صلح الحديبية ، فعندما قال - صلى الله عليه وسلم - لعللى أكتب « بسم الله
الرحمن الرحيم » قال أحد زعمائهم « ما ندرى ما الرحمن الرحيم ... »

وقد أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم بما
يبطل كفرهم فقال : « قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب » .

أى : قل لهم أيها الرسول الكريم : الرحمن الذى تتعافون النطق باسمه
الكريم هو وحده ربي وخالقى ، لا إله مستحق للعبادة سواه ، عليه لاعلى أحد
سواه توكلت فى جميع أمورى ، وإليه لا إله غيرى مرجئى وتوئى وإنا بئى .

فهذه الجملة الكريمة اشتملت على أبلغ رد على أولئك المشركين الذين

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .

(٢) سورة الفرقان الآية ٦٠ .

أنفكروا أنف بكون الإله - جـل وعلا - وحمانا ، وأنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة .

ثم أشار - سبحانه - إلى عظمة هذا القرآن الذى أوحاه إلى نبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال : « ولو أن قرأنا سيرت به الجبال ، أو أقطعت به الأرض ، أو كلم به الموتى ... »

والمراد بالقرآن هنا معناه اللغوى أى الكلام المفروء .
وجواب لو محذوف لدلالة المقام عليه .

والمعنى : ولو أن كتابا مقروءا من الكتب السماوية ، « سيرت به الجبال ، أى : تحركت من أَمَا كنها ، « أو قطعت به الأرض ، أى شقت وصارت قطعاً ، « أو كلم به الموتى » ، بأن يعودوا إلى الحياة بعد قراءته عليهم .

« لو أن كتابا مقروءا كان من وظيفته أن يفعل ذلك لكان هذا القرآن ، لكونه الغاية القصوى فى الهداية والتذكير ، والنهاية العظمى فى الترغيب والترهيب وعلى هذا المعنى يكون الغرض من الآية الكريمة بيان عظم شأن القرآن الكريم : وإبطال رأى الكافرين الذين طلبوا من الرسول - صلى الله عليه وسلم - آية كوثية سواه .

وبصح أن يكون المعنى : ولو أن كتابا مقروءا من الكتب السماوية نزل عليك يا محمد فسيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، لما آمن هؤلاء المعاندون .

قال - تعالى - « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ... » (١) .

وعلى هذا المعنى يكون المقصود من الآية الكريمة ، بيان غلوهم فى العناد والظفیان ، وتماديهم فى الكفر والضلال ، وأن سبب عدم إيمانهم ليس مرد

إلى عدم ظهور الدلائل الدالة على صدقه - صلى الله عليه وسلم - ، وإنما سببه الجسد والعناد والمكابرة .

ووجه تخصيص هذه الأشياء الثلاثة من بين الخوارق التي طلبوها منه - صلى الله عليه وسلم - ما ذكره الإمام ابن كثير من أن المشركين قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - : يا محمد ، لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرق فيها ، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح ، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى - يحيى الموتى لقومه ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية (١) .

وقوله - سبحانه - : « بل لله الأمر جميعا ، لضراب عن مطالبهم المتعنتة إلى بيان أن الأمر كلها بيد الله ، وأن قدرته - سبحانه - لا يعجزها شيء . »
أى : إن الله - تعالى - لا يعجزه أن يأتي بالمقترحات التي اقترحوها ، ولكن إرادته - سبحانه - لم تتعلق بما اقترحوه ، اعلم - سبحانه - بهتهم ونفورهم عن الحق مهما أوتوا من آيات .

وقوله - سبحانه - : « أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ، نقيس للمؤمنين من إستجابة أولئك الجاحدين للحق ، إلا أن يشاء الله لهم الهداية ، والاستفهام للإنكار . »

وأصل اليأس : قطع الطمع في الشيء والقنوط من حصوله .

والعلماء في تفسير هذه الجملة السكرية اتجاهان :

أحدهما يرى أصحابه أن الفعل ييأس على معناه الحقيقي وهو قطع الطمع في الشيء ، وعليه يكون المعنى : أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان كفار قريش ، ويعلموا أن الله - تعالى - لو يشاء هداية الناس جميعا لاهتدوا ، ولكنه لم يشأ ذلك ؛ ليتميز الخبيث من الطيب .

وعلى هذا الاتجاه سار الإمام ابن كثير فقد قال - رحمه الله - : وقوله

- تعالى - : أفلم ييأس الذين آمنوا ، أى : من إيمان جميع الخلق ويعلموا
أو يقينوا ، أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ، فإنه ليس هناك حجة ولا معجزة
أبلغ ولا أنجح فى النفوس والعقول من هذا القرآن ، الذى لو أنزله الله على جبل
لرأيت حاشعا متصدعا من خشية الله .

وثبت فى الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : ما من نبي
إلا وقد أوتى ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله
إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة ،^(١) .

ويؤيد هذا الاتجاه ما ذكره السيوطى فى تفسيره من أن بعض الصحابة
قالوا للرسول - صلى الله عليه وسلم - يا رسول الله ، أطلب لهم - أى للبشر كين -
ما اقترحوه عسى أن يؤمنوا .

أما الاتجاه الثانى فىرى أصحابه أن الفعل ييأس بمعنى يعلم ، وعليه يكون
المعنى : أفلم يعلم المؤمنون أنه - سبحانه - لو شاء هداية الناس جميعا لآمنوا...
وهذا الاتجاه صدر به الآلوسى فى تفسيره فقال ما ملخصه :

ومعنى قوله - سبحانه - : أفلم ييأس الذين آمنوا ، أفلم يعلموا . وهى كما
قال القاسم بن معن لغة هرازن . وقال الديكلى هى لغة حى من النخع ، وأنشدوا
على ذلك قول سحيم بن وثيل الرياحى :

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونى ألم تياسوا أنى ابن فارس زهدم
وقول رباح بن عدى :

ألم ييأس الأقوام أنى أنا ابنه ولم كنت عن أرض العشرة قائما
والظاهر أن استعمال اليأس فى ذلك حقيقة .

وقيل مجاز لأنه متضمن للعلم ، فإن الآيس عن الشئ عالم بأنه لا يكون...

والنساء للمعطف على مقدر . أى : أغفلوا عن كون الأمر جميعه لله - تعالى . فلم يعلموا أن لو إيشاء الله لهدى الناس جميعا . . . ، (١)

ثم حذر - سبحانه - الكافرين من التماذى فى كفرهم ، وبشر المؤمنين بحسن العاقبة فقال - تعالى - : « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل تريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد » .

والقارعة : من القرع ، وهو ضرب الشىء بشىء آخر بقوة وجهها قوارع . والمراد بها : الرزية والمصيبة والكارثة .

أى : ولا يزال الذين كفروا من أهل مكة وغيرهم تصيبهم بسبب ما صنعوه من الكفر والضلال ، قارعة ، أى مصيبة تفجؤهم ونزجهم أو تحل تلك المصيبة فى مكان قريب من دارهم ، فيتطأير شرها إليهم ، حتى يأتى وعد الله بهلاكهم وهزيمتهم ونصر المؤمنين عليهم ، إن الله - تعالى - لا يخلف الميعاد ، أى : موعوده لرسله ولعباده المؤمنين .

وأبهم - سبحانه - ما يصيب الكافرين من قوارع ، لنهويله وبيان شدته والتعبير بقوله « ولا يزال » يشير إلى أن ما أصابهم من قوارع كان موجودا قبل نزول ، هذه الآية ، واستمرت لإصابته لهم بعد نزولها ، لأن الفعل « لا يزال » يدل على الإخبار باستمرار شىء واقع .

ولعل هذه الآية السكرية كان نزولها فى خلال سنين الجذب التى حلت بقريش والى أشار إليها القرآن بقوله : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين . يغشى الناس هذا عذاب أليم . . . » (٢)

وعبر - سبحانه - عما أصابهم من بلاء بالقارعة ، للبالغة فى شدته وقوته . حتى إنه ليقرع قلوبهم فجأة فيهمتهم ويزعجهم ، ولذلك سميت القيامة بالقارعة ، لأنها تقرع القلوب بأهوالها .

(١) تفسير الآلوسى ج ١٣ ض ١٤١ (٢) سورة الدخان الآية ١٠ ، ١١

وقال سبحانه : أو تحل قريباً من دارهم ، لبيان أنهم بين أمرين أحلاهما من . لأن القارعة إما أن تصيبهم بما يكرهونه ويتألمون له ، وإما أن تنزل قريباً منهم فتفرغهم ، تفلق أمتهم ، وهم مستعرون على ذلك حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

ولقد قضى الله - تعالى - أمره ، بهزيمتهم في بدر وفي غيرها . وأنهم نصره . على المؤمنين بفتح مكة . وبدخول الناس في دين الله أفواجا .

ثم أخذت السورة الكريمة بعد ذلك في تسليبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفي إقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى بطلان الشر ، وفي بيان ما أعدّه للكافرين من عقاب ، وما أعدّه للمتقين من ثواب فقال تعالى :

« ولقد استهزىء برسل من قبلك ، فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان عقاب (٣٢) أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ، وجعلوا لله شركاء ، قل سموهم ، أم تُنبئونه بما لا يعلم في الأرض ، أم بظاهر من القول ، بل زين للذين كفروا مكرهم ، وصُدوا عن السبيل ، ومن يُضلل الله فما له من هادٍ (٣٣) لهم عذاب في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشق ومآلهم من الله واقٍ (٣٤) مثل الجنة التي وعِد المتقون أكلها دائم وظلها ، تلك عقبي الذين اتقوا ، وعقبي الكافرين النار (٣٥) » .

وقوله - سبحانه - « ولقد استهزىء برسل من قبلك . . . » تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من حزن بسبب تعنت المشركين معه . ومطالبهم له بالمطالب السخيفة التي لا صلة لها بدعوته ، كطلبهم منه تسيير الجبال ونقض الأرض ، وتكليم الموتى .

والاستهزاء : المبالغة في السخرية والتهكم من المستهزء به . والإملاء : الإمهال وترك لمدة من الزمان .

والتنكير في قوله : برسل ، للتكثير ، فقد استهزأ قوم نوح به ، وكانوا كلما مروا عليه وهو يصنع السفينة سخروا منه .

واستهزأ قوم شعيب به وقالوا له : « فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ^(١) » .

واستهزأ قوم هود به وقالوا له : « إنا لنراك في سفاهة ^(٢) » ... ، واستهزأ فرعون بموسى فقال : « أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ^(٣) » ، والمعنى : ولقد استهزأ الطغاة والجاحدون برسل كثيرين من قبلك - أيها الرسول الكريم - « فأملت للذين كفروا » أى : فأملتهم ونزكتهم مدة من الزمان فى أمن ودعة .

« ثم أخذتهم » أخذ عزيز مقتدر « فكيف كان عقاب » فانظر كيف كان عقابي لإياهم ، لقد كان عقابا رادعا دمرهم تدميرا .

فلاستفهام لتعجب مما حل بهم ، والتهويل من شدته وفظاعته . وشبه بهذه الآية قوله - تعالى - « وكان من قرية أملت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ^(٤) » .

قال ابن كثير : وفى الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « وإن الله ليملى لأظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ - صلى الله عليه وسلم - « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد ^(٥) » .

(١) سورة أنشعراء الآية ١٨٧

(٢) سورة الأعراف الآية ٦٦ ،

(٣) سورة الزخرف الآية ٥٢

(٤) سورة الحج الآية ٤٨ (٥) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٨٣ .

ثم أقام - سبحانه - الأدلة الساطعة على وحدانيته وعلى وجوب إخلاص العباد له - تعالى - فقال : « أفن هو قائم على كل نفس بما كسبت ... »

والمراد بالقيام هنا : الحفظ والهيمنة على جميع شئون الخلق . والاستفهام للإنكار ، والخبر محذوف والتقدير :

« أفن هو قائم ، أى : رقيب ومهيمن ، على كل نفس ، كائنة ما كانت ، عالم بما عمله من خير أو شر فجازيها به كمن ليس كذلك ؟ »

وحذف الخبر هنا وهو قولنا - كمن ليس كذلك - لدلالة السياق عليه ، كما فى قوله تعالى : « أفن شرح الله صدره الإسلام ، أى : كمن قسا قلبه . » - ومن حذف الخبر هنا لأنه مقابل للبستاء الذى هو « من » ولأن قوله - تعالى - « وجعلوا لله شركاء » يدل عليه .

والمقصود من الآية السكينة إنكار المماثلة بين الخالق العظيم ، الملم بأحوال النفوس ... وبين تلك الأصنام التى أشركوها مع الله - تعالى - فى العبادة . والى هى لا نسمع ولا تبصر ، ولا تملك لنفسها - فضلا عن غيرها - نفعا ولا ضرا .

وجملة « وجعلوا لله شركاء » ، حالية ، والتقدير :

أفن هذه صفاته - وهو الله - تعالى - كمن ليس كذلك ، والحال أن هؤلاء الأغبياء قد جعلوا له شركاء فى العبادة وغيرها .

فالمقصود من هذه الجملة السكينة ، زيادة توبيخهم ، وتسفيه أفكارهم وعقولهم .

وقوله - سبحانه - قل سموهم ، تبكى لهم لمثر تبكى .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - سموهم شركاء إن شئتم ، فإن هذه التسمية لا وجود لها فى الحقيقة والواقع ، ولا تخرجهم عن كونهم لا يملكون

لأنفسهم - فضلا عن غيرهم - نفعا ولا ضرا ، لأن الله - تعالى - واحد لا شريك له .

وهذه التسمية إنما هي من عند أنفسكم ما أنزل الله بها من سلطان . كما قال تعالى : « إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » (١) ، فالأمر في قوله « سموهم » مستعمل في الإباحة المصحوبة بالتهديد ، للإشارة إلى عدم الاكتراث بهم وبأسمائهم التي سموها شركاء .

وهذا كما يقول العاقل للأحمق الذي لا يحسن الكلام : قل ما شئت فإن كلامك لا وزن له . ولا خير فيه .

قال الإمام الرازي عند تفسيره لهذه الآية : واعلم أنه تعالى لما قرر هذه الحجة - وهي أن القائم على كل نفس ليس كمن لا يملك شيئا - زاد في الحجاج فقال : « قل سموهم » وإنما يقال ذلك في الأمر المستحضر الذي بلغ في الحقارة إلى أن لا يذكر ولا يوضع له اسم ، فعند ذلك يقال : سمه إن شئت .

يعنى : إنه أخس من أن يسمى ويذكر ، واسكنك إن شئت أن تضع له اسما فافعل .

فكأنه - تعالى - قال : سموهم بالآلهة ، والمعنى : سواء أسميتموهم بهذا الاسم أم لم تسموهم به ، فإنها في الحمارة بحيث لا تستحق أن يلتفت العاقل إليها ، (٢) .

والاستفهام في قوله - تعالى - « أم قنبشونه بما لا يعلم في الأرض ، أم ينظرون من القول ، للإفكار والتوبيخ .

أى : قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الذين جعلوا لله شركاء وسموهم بهذا

(١) سورة النجم الآية ٢٢ -

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١٩ ص ٥٦

الامر : قل لهم على سبيل الانكار والتوبيخ : أتخبرون الله شركاء لا وجود لهم في الأرض ، لأنهم لو كان لهم وجود لعلمهم ، لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

أم أنكم سمعتمهم شركاء . بظاهر من القول أى : بظن من القول لاحقيقة له في الواقع ونفس الامر .

قال الألوسي ما ملخصه : وقوله ، أم ننبئوه ، أى : بل أخبرون الله - تعالى - بما لا يعلم في الأرض ، أى شركاء . مستحقين للعبادة لا يعلمهم - سبحانه - والمراد : فيها بنى لازمها على طريق الكساية ، لأنه - سبحانه - إذا كان لا يعلمها - وهو الذي لا يعزب عن علمه شيء - فهي لاحقيقة لها أصلاً . وتخصيص الأرض بالذكر ، لأن المشركين زعموا أنه - سبحانه - له شركاء فيها . . .

وقوله ، أم بظاهر من القول ، أى : بل أنسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير معنى متحقق في نفس الامر ، كتسمية الزنجى كافوراً .

وروى عن الضحاك وقتادة ، أن الظاهر من القول : الباطل منه ، كفا في قول القائل :

أعيترتنا ألبانها ولحومها وذلك عار يابن ربيعة ظاهراً
أى : باطل زائد . . . ، (١)

وقوله - سبحانه - : بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ، ومن يضل الله فإله من هاد ، إضراب عن حجاجهم ، وإهمل لشأنهم ، ودين ، من التزيين وهو تصوير الشيء زينة أى : حسناً .

والمسكر : صرف الغير عما يريد به بحيلة . والمراد به هنا : كفركم ومسالكهم الخبيثة ضد الإسلام والمسلمين .

والمعنى : دع عنك - أيها الرسول الكريم - مجادلهم ، لأنه لا فائدة من ورائها ، فإن هؤلاء الكافرين قد زين لهم الشيطان ورؤساؤهم في الكفر مكرهم وكيدهم للإسلام وأتباعه ، وصدوهم عن السبيل الحق ، وعن الصراط المستقيم ، ومن يضلله الله - تعالى - بأن يخلق فيه الضلال لسوء استعدادة ، فإنه من هاديهديه ويرشده إلى ما فيه نجاته .

هذا ، وقد اشتملت هذه الآية على ألوان من الحجج الساطعة التي تثبت وجوب إخلاص العبادة لله ، وتبطل الشرك والشركاء ، أشار إليها بعض المفسرين فقال :

قال الطيبي : في هذه الآية الكريمة احتجاج بليغ مبني على فنون من علم البيان :

أولها : دأف هو قائم على كل نفس بما كسبت ، كمن ليس كذلك ، لاحتجاج عليهم وتوبيخ لهم على القياس الفاسد ، لفقد الجهة الجامعة لهما .

ثانيها : د وجعلوا لله شركاء ، من وضع المظهر موضع المضمّر ، للتنبيه على أنهم جعلوا شركاء لمن هو فرد واحد لا يشاركه أحد في أسمائه .

ثالثها : د قل سمعتم ، أي عينو أسمائهم فقولوا فلان وفلان ، فهو إنكار لوجودها على وجه برهاني . .

رابعها : د أم تدبّون به بما لا يعلم ، لاحتجاج من باب نفى الشيء . أعنى العلم بنفى لازمه وهو المعلوم وهو كتابة .

خامسها : د أم بظاهر من القول ، لاحتجاج من باب الاستدراج لبعثهم على التفكر .

أي : أتقولون بأفواهكم من غير روية ، وأنتم ألباء ، فتفكروا فيه اتقفوا على بطلانه .

سادسها : التدرج في كل من الإضرابات على اللطف وجهه ، وحيث كانت

الآية مشتملة على هذه الأساليب البديعة مع إختصارها، كان الإحتجاج المذكور مناديا على نفسه بالإعجاز وأنه ليس من كلام البشر (١) .

ثم بين - سبحانه - سوء مصير هؤلاء الكافرين فقال : ولهم عذاب في الحياة الدنيا ، أى : لهم عذاب شديد في الحياة الدنيا ، ينزله الله - تعالى - بهم قارة عن طريق القوارع والمصائب التى يرسلها عليهم ، وقارة عن طريق الهزائم التى يوقعها بهم المؤمنون هذا فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشق ، من عذاب الدنيا لشدة ودوامه ، وما لهم من الله - تعالى - ومن عذاب الآخر ، من واق ، أى : من حائل يحول بينهم وبين عذابه - سبحانه - .

ثم أعقب ذلك ببيان حسن عاقبة المؤمنين فقال : ومثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها
والمراد بالمثل هنا : الصفة العجيبة .

أى : صفة الجنة التى وعد الله إياها من اتقاه وصان نفسه عن كل ما لا يرضيه ، أنها تجرى من تحت أشجارها ومسكنها الأنهار ، وأنها أكلها دائم ، أى : ما يؤكل فيها لا ينقطع لأنواعه ، وظلها ، كذلك دائم .

قال بعضهم : وجلة ، تجرى من تحتها الأنهار ، خبر عن ، مثل ، باعتبار أنها من أحوال المضاف إليه ، فهى من أحوال المضاف لشدة الملازمة بين المتضايفين ، كما يقال : صفة زيد أسير .

وجلة ، أكلها دائم ، خبر ثان ، (١) .

واسم الإشارة فى قوله ، تلك عقبى الذين اتقوا ، يعود على الجنة التى أعدها الله - تعالى - للمتقين .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٧

(٢) تفهيم التحرير والتنوير ج ١٣ ص ١٥٥ للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور

أى : تلك الجنة المنعوتة بما ذكره مآل المتقين الذين استقاموا على الطريق الحق ، وعلى منتهى أمرهم .

أما مآل الكافرين ومنتهى أمرهم فى النار ، وبش القرار . هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، جملة من الأحاديث فى صفة الجنة فقال :

وفى الصحيحين من حديث ابن عباس فى صلاة السكوف ، وفيه قالوا يارسول الله رأيناك قنأولت شيئاً فى مقامك هذا ، ثم رأيناك تسكعكت - أى توقفت وأحجمت - ؟ فقال : إني رأيت الجنة - أو رأيت الجنة - فتناولت منها عنقوداً ، ولو أخذته لأكلته ما بقيت الدنيا .

ودوى الطبراني عن ثوبان قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى ، (١) .

وبذلك ترى الآيات السكرية قد ساقنا من التوجيهات ما فيه التسليم للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه ، وما فيه أوضح الدلائل والبراهين وأبلغها على وحدانية الله - تعالى - ووجوب إفراده بالعبادة ، وما فيه البشارة للمؤمنين ، والتهديد للكافرين .

ثم ختم - سبحانه - السورة السكرية ، ببيان موقف أهل الكتاب من القرآن الكريم ، وبأمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يعلن منهجه بهرأحة وثبات ، دون التفات إلى أهواء معارضة ، وبالرد على الشبهات التى أثارها أعداؤه حوله وحول دعوته ، وبتهديد هؤلاء الأعداء وبسوء العاقبة إذا ما استمروا فى طغيانهم فقال - تعالى -

« وَالَّذِينَ آمَنُوا هُمُ الْكَاتِبُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ، وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يَنْكَرُ بَعْضَهُ ، قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٨٦

إليه أذغو وإليه مأب (٣٦) وكذلك أنزلناه حُكْمًا عَرَبِيًّا ، وَلَقَدْ أَتَيْتُمْ أَهْوَاءَهُمْ بِعَدَمٍ مَا جَاءَكُمُ مِنَ الْعِلْمِ ، مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِن قَوْلٍ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَاقَدْ أَرْسَلْنَا رِسَالًا مِن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمُ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ (٣٨) يَحْوِ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تُتَوَفِّيكَ ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَفَعَلَهُ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ، وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لَمَنَ عَقِبَهُ الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) .

وقوله - سبحانه - : « وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ نَفًّا مِنْهُ - سبحانه - عِلْمُ الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ قَاتِبُوهُ .
والمراد بالكتاب هنا : التوراة والإنجيل .

والمعنى : « وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ، فَأَمَنُوا بِمَا فِيهِمَا مِنْ بَشَارَاتِ تَعْلَقُ بِكَ - أيها الرسول الكريم - ، ثُمَّ آمَنُوا بِكَ عِنْدَ إِسْرَائِكَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تِلْكَ صِفَاتُهُمْ ، يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَهَؤُلَاءِ مِنْ هَدَايَاتِ وَبَرَاهِينِ عَلَى صِدْقِكَ ، يَزِيدُهُمْ إِيمَانًا عَلَى إِيمَانِهِمْ ، وَبِةٍ عَلَى يَقِينِهِمْ :

وقيل : المراد بالكتاب : القرآن الكريم ، فهو بالموصول أتباع
- صلى الله عليه وسلم - من المسلمين .

فيكون المعنى: والذين آتيناهم الكتاب - وهو القرآن - فأمنوا بك وصدقوك
يفرحون بكل ما ينزل عليك منه ، لأنه يزيدهم هداية على هدايتهم .

ويبدو لنا أن الرأي الأول أرجح ، لأن الآية السكرية سبقت بعد الحديث
عن عقبة الذين اتفقوا وهم المؤمنون الصادقون ، وعاقبة الكافرين ، ولأن فرح
المؤمنين بنزول القرآن أمر مسلم به فلا يحتاج إلى الحديث عنه .

ومن المفسرين الذين اقتصروا في تفسيرهم للآية على الرأي الأول الإمام
ابن كثير فقد قال ويقول الله تعالى: والذين آتيناهم الكتاب ، وهم قائلون بمقتضاه
« يفرحون بما أنزل إليك » أي : من القرآن ، لما في كتبهم من الشواهد على
صدقه - صلى الله عليه وسلم - وبالبشارة به ، كما قال تعالى : والذين آتيناهم الكتاب
يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون^(١).

وقوله : « ومن الأحزاب من ينكر بعضه » بيان لمن بقي على كفره من أهل
الكتاب وغيرهم .

والأحزاب : جمع حزب ويطلق على مجموعة من الناس اجتمعوا من أجل
نغاية معينة أي : ومن أحزاب الكفر والضلال من ينكر بعض ما أنزل إليك
لأنه يخالف أهواءهم وأطماعهم وشهواتهم ..

ولم يذكر القرآن هذا البعض الذي ينكروه ، لإمالة لشأنهم ، ولأنه
لا يتعلق بذكره غرض .

وقوله سبحانه: قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به، إليه أدعو وإليه مآب،
أمر منه - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - بأن يصدق بما يأمره به دون
تردد أو وجل .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - امكّل من خائفك فيما تدعو إليه ، إنما أمرت أن أعبد الله ، وحده ، ولا أشرك به ، بوجه من الوجوه إليه ، وحده ، أدعو . الناس لكي يخلصوا له العبادة والطاعة « وإليه مآب » أى وإليه وحده ، ليأبى ومرجعى لا إلى أحد غيره .

فالآية تضمنت المدح لمن عرف الحق ففرح بوجوده . والذم لمن أنكره جحودا وعنادا ، والأمر للنبي - صلى الله عليه وسلم - بالسير في طريقه بدون خشية من أحد .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك بعض الفضائل التي أمتاز بها القرآن الكريم فقال - تعالى - : « وكذلك أنزلناه حكا عربيا ... »

والكاف للتشبيه ، واسم الإشارة يعود إلى الإنزال المأخوذ ، أنزلناه ، وضمير الغائب في أنزلناه يعود إلى « ما أنزل إليك » ، في قوله في الآية السابقة يفرحون بما أنزل إليك ... ، وقوله « حكا عربيا ، حالا من ضمير الغائب .

والمعنى : ومثل ذلك الإنزال البديع الجامع لألوان الهداية والإعجاز ، أنزلنا عليك القرآن يا محمد ، حكا ، أى : حاكيا بين الناس « عربيا ، أى : بلسان عربي مبين هو لسانك ولسان قومك .

ومنه من يرى أن اسم الإشارة يعود إلى السكتب السماوية السابقة ، فيكون المعنى :

وكما أنزلنا السكتب السماوية على بعض رسلنا بلغاتهم وبلغات أقوامهم ، أنزلنا عليك القرآن حاكيا بين الناس بلغتك وبلغة قومك ، وهى اللغة العربية ، ليسهل عليهم فهمه وحفظه .

وعلى كلا القولين فأنت ترى أن هذه الجملة الكريمة قد اشتملت على فضيلتين للقرآن الكريم :

فضيلة من جهة معانيه ومقاصده وهداياته وحكمه وأحكامه ونشريعاته ،
وهي المعبّر عنها بكونه « حكمة » .

وفضيلة من جهة ألفاظه ومفرداته وتراكيبه ، وهي المعبّر عنها بكونه
« عربيا » .

أى : نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات وأغناها وأجملها .
ثم في كونه « عربيا » امتنان على العرب المخاطبين به ابتداء ، حيث إنه
نزل بلغتهم ، فكان من الواجب عليهم أن يقابلوه بالفرح والتسليم لأوامره
وتواحيه ، فهو الكتاب الذى فيه شرفهم وعزهم ، قال - تعالى - « لقد أنزلنا
إليك كتابا فيه ذكركم - أى فيه بقاء شرفكم - أفلا تعقلون » (١) .

وقال - تعالى - « وإنه نذكر لك ولقومك وسوف تسألون » (٢) .
وفى ذلك تعريض بغياء مشركى العرب ، حيث لم يشكروا الله - تعالى -
على هذه النعمة ، بل قابلوا من أنزل عليه هذا القرآن بالعناد والعصيان .

ثم ساق - سبحانه - تحذيرا للأمم كلها فى شخص نبيها - صلى الله عليه وسلم -
من أتباع أهواء كل كافر أو فاسق ، فقال - تعالى - : « ولئن اتبعت أهواءهم
بعد ما جاءك من العلم ، ما لك من الله من ولى ولا واق » .

واللام فى قوله « ولئن » موطئة للقسم لتأكيد ما تضمنته من عقاب شديد
لمتبع أهواء الكافرين .

والأهواء : جمع هوى ، والمراد بها آراؤهم المنحرفة عن الحق ، ومطالبهم
المتعنتة ، والمراد بما جاءه من العلم : ما بلغه وعلمه من الدين عن طريق الوحي
الصادق .

والولى : الناصر والمعين والقريب والخليف .

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠

(٢) سورة الزخرف الآية ٤٤

والواق : المدافع عن غيره .

والمعنى : « ولئن اتبعت ، - يا محمد - على سبيل الفرض والتقدير - أهواء هؤلاء الكافرين فيما يطلبونه منك ؛ « من بعد ما جاءك من العلم ، اليقين . بأن الإسلام هو الدين الحق ، « مالك من الله ، أى من عقابه ، « من ولى ، يلى أمرك وينصرك » ولا واق ، يقيلك من حسابه . وسيق هذا التحذير في صورة الخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - للتأكيد من مضمونه .

فكانه - سبحانه - يقول : لو اتبع أهواءهم - على سبيل الفرض - أكرم الناس عندي لما قبلته ، وأحق بهذا العقاب من كان دونه في الفضل والمنزلة وشبه هذه الآية قوله - تعالى - ، « ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتسكونن من الخاسرين ، (١) » .

ثم بين - سبحانه - أن اعتراض المشركين على بشرية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليس إلا من قبل التعنت والجحود ، لأن الرسل جميعا كانوا من البشر ، فقال - تعالى - : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ... »

أى : « ولقد أرسلنا رسلا ، كثيرين « من قبلك » يا محمد ، وجعلنا لهم ، أى لهؤلاء الرسل « أزواجا ، يسكنون لإبن « وذرية ، أى : وأولاد أقربهم أعينهم .

قال الصوكاني : « وفي هذا رد على من كان ينكر على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تزوجه بالنساء .

أى : هذا شأن رسل الله المرسلين قبل هذا الرسول فما بالكم تفكرونه عليه ما كانوا عليه ، (٢) .

وقوله - سبحانه - : « وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله . . . »
رد على ما طلبوه منه - صلى الله عليه وسلم - من معجزات .

أى : وما صح وما استقام لرسول من الرسل أن يأتي لمن أرسل إليهم بمعجزة
كاثنة ما كانت إلا بإذن الله وإرادته المبينة على الحكم والمصالح التي عليها يدور
أمر الكائنات .

وقوله - سبحانه - : « لكل أجل كتاب » تهديد للمشركين الذين كفروا
بتمجولون حصول المقترحات التي طلبوها منه - صلى الله عليه وسلم - .
أى : لكل وقت من الأوقات كتاب ، أى : حكم معين يكتب على الناس
حسبما تقتضيه حكمته ومشيبته - سبحانه - .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مظهر أ من مظاهر شمول قدرته ، وسعة علمه ،
وعظيم حكمته فقال : « يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » ،

وقوله « يحو » من الحو وهو إذهاب أثر الشئ - بعد وجوده - .
وقوله « ويثبت » من الإثبات وهو جعل الشئ ثابتاً قاراً في مكان ما .
وأم الكتاب : أصل الكتاب والمراد بأم الكتاب : اللوح المحفوظ ، أو
علمه - سبحانه - المحيط بكل شئ .

قال الفخر الرازى : والعرب تسمى كل ما يجرى مجرى الأصل للشئ - أما
له ومنه أم الرأس للدماغ ، وأم القرى لمكة ، وكل مدينة فهي أم لما حولها من
القرى فكذلك أم الكتاب هو الذى يكون أصلاً لجميع الكتب ^(١) .

والمعنى : يحو الله - تعالى - ما يشاء يحوه ، ويثبت ما يريد لإثباته من الخير
أو الشر ومن السعادة أو الشقاوة ، ومن الصحة أو المرض ، ومن الفنى أو
الفقر ، ومن غير ذلك مما يتعلق بأحوال خلقه .

وعنده - سبحانه - الأصل الجامع لكل ما يتعلق بأحوال هذا الكون .

قان - تعالى - : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير .. » (١) .

وقال - تعالى - : « ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب ، إن ذلك على الله يسير » (٢) .

والفهرسين في معنى هذه الآية كلام طويل ، لخصه الامام الشوكاني تلخيصا حسنا فقال :

قوله - سبحانه - « يحو الله ما يشاء ويثبت » أي يحو من ذلك الكتاب ويثبت ما يشاء منه . وظاهر النظم القرآني العموم في كل شيء مما في الكتاب ، فيمحو ما يشاء محو من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر .. . ويبدل هذا بهذا ، ويجعل هذا مكان هذا . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

وإلى هذا ذهب عمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عباس وقتادة وغيرهم .

وقيل الآية خاصة بالسعادة والشقاوة . وقيل يحو ما يشاء من ديوان الحفظ ، وهو ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب .

وقيل يحو ما يشاء من الشرائع فينسخه ، ويثبت ما لا يشاء فلا ينسخه .. والاول أولى كما تفيد « ما » في قوله « ما يشاء » من العموم . مع تقدم ذكر الكتاب في قوله « امكّل أجل كتاب » ومع قوله « وعنده أم الكتاب » أي أصله وهو اللوح المحفوظ .

(١) سورة الحديد الآية ٢٢

(٢) سورة الحج الآية ٧٠

فالمراد من الآية أنه يمحو ما يشاء بما في اللوح المحفوظ فيه - كونه كالعدم ،
ويثبت ما يشاء بما فيه فيجري فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته .
وهذا الايمان ما ثبت عنه - صلى الله عليه وسلم - من قوله : جف القلم ،
وذلك لأن المحو والإثبات هو من جملة ما قضاه - سبحانه - .

وقيل : إن أم الكتاب هو علم الله - تعالى - بما خلق وبما هو خالق^(١) .
وقوله - سبحانه - : وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك ، فإنما
عليك البلاغ وعلينا الحساب ، حض له - صلى الله عليه وسلم - على المضى
في دعوته بدون تسويق أو تأجيل .

و د ما ، في قوله : وإما نرينك ، مزيدة لتأكيد معنى الشرط ، والأصل
وإن نرك والإقامة هنا بصرية ، والكاف مفعول أول ، وبعض الذي نعدهم
مفعول ثان وجواب الشرط محذوف .

والمعنى : وإما نرينك - يا محمد - بعض الذي نرعدنا به أعداءك من
العذاب الدنيوي ، فذلك شفاء لصدرك ومردود أتباعك .

وقوله : أو نتوفينك ، شرط آخر لعطفه على الشرط السابق ، وجوابه -
أيضا - محذوف والتقدير : أو نتوفينك قبل ذلك فلا تهتم ، وأترك الأمر لنا .
وقوله : فإنما عليك البلاغ ، تعليل لهذا الجواب المحذوف ، أي : سواء
أرأيت عذابهم أم لم نره ، فإنما عليك فقط تبليغ ما أمرناك بتبليغه للناس .
و وعلينا ، وحدهما الحساب ، أي : محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم
السيئة .

وقوله - سبحانه - : بعض ما نعدهم ، الإشارة إلى أن ما يصيبهم من عذاب
دنيوي هو بعض العذاب المعد لهم ، أما البعض الآخر وهو عذاب الآخرة
فهو أشد وأبقى .

ولقد صدق الله - تعالى - وعده لنبيه - صلى الله عليه وسلم - فأراه قبل أن يفارق هذه الدنيا، جانباً من العذاب الذي أنزله بأعدائه ، فسلط على مشركي مكة الجذب والقحط الذي جعلهم يأكلون العظام والميتة والجلود ..

كما سلط عليهم المؤمنين فزروهم في غزوة بدر وفي غزوة الفتح وفي غيرهما . ثم وبخ - سبحانه - المشركين لعدم تفكيرهم وتدبرهم واتعاضهم بآثار من قبلهم ، فقال - تعالى - دأبهم يومئذ أن يأتوا الأرض فنقصها من أطرافها ... ، والهمزة للاستفهام الإنكارى ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، والخطاب لمشركي مكة ومن كان على شاكلتهم في الكفر والضلال . والمراد بالأرض هنا : أرض الكفرة والظالمين .

والأطراف جمع طرف وهو جانب الشيء . والمعنى : أعنى هؤلاء الكافرون عن التفكير والاعتبار ، ولم يروا كيف أن قدرة الله القاهرة ، قد أتت على الأمم القوية الغنية - حين كفرت بنعمه - سبحانه - ، فصيرت قوتها ضعفا . وغناها فقرا ، وعزها ذلا ، وأمنها خوفا ... وحصرتها في رقعة ضيقة من الأرض ، بعد أن كانت تملك الأراضي الفسيحة ، والأماكن المترامية الأطراف .

فآية الكريمة بشاره للمؤمنين ، وإنذار للكافرين . وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - دأبهم يومئذ أن يأتوا الأرض فنقصها من أطرافها أفهم الغالبون ، (١) .

قال الألوسي مالم يخلصه : وروى عن ابن عباس أن المراد بانتقاص الأرض : موت أشرفها وكبرائها وذهاب أعلامها .. وعليه يكون المراد بالأرض جنسها ، وبالأطراف الأشراف والعلماء ، وشاهده قول الفرزدق :

واسأل بنا وإياكم، إذا وردت منى أطراف كل قبيلة، من يتبع؟
يريد أشراف كل قبيلة ...

وتقرير الآية عليه: أو لم يروا أنها تحدث في الدنيا من الاختلافات خراباً بعد عمارة، وموقاً بعد حياة، وذلاً بعد عز .. فما الذي يؤمنهم أن يقلب الله - تعالى - الأمر عليهم فيجعلهم أذلة بعد أن كانوا أعزة ...

ثم قال: وهو كما ترى.

والأول - وهو - أن يكون المراد بالأرض: أرض الكفر، وبالأطراف الجوانب - أو فوق بالمقام، ولا يخفى ما في التعبير بالإتيان المؤذن بعظيم الأسقيلاء من الفخامة، وجملته تنقصها، في موضع الحال من فاعل تأتي ... (١)

وقوله - سبحانه - : والله يحكم لامعقب لحكمه، بيان لعلو شأن حكمه - تعالى - ونفاذ أمره .

والمعقب: هو الذي يتعقب فعل غيره أو قوله فيبطئه أو يصححه .

أى: والله - تعالى - يحكم ما يشاء أن يحكم به في خلقه، لا أراد لحكمه، ولا دافع لقصائمه، ولا يتعقب أحد ما حكم به بتغيير أو تبديل، وقد حكم - سبحانه - بمزة للإسلام، وعـلو شأنه وشأن أتباعه على سائر الأمم والأديان .

وقوله وهو سريع الحساب، أى: وهو - سبحانه - سريع المحاسبة والمجازاة، لأنه لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه غيره من الإحصاء والعد، إذ هو - سبحانه - محيط بكل شيء، فلا تستبطن عقابهم أيها الرسول الكريم، فإن ما وعدناك به واقع لا محالة .

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ١٣ ص ١٥٥ .

ثم زاد - سبحانه - في تسليته رسوله صلى الله عليه وسلم - وفي تثبيت قواده فقال : « وقد مكر الذين من قبلهم ففله المكر جميعا ... »
والمكر : صرف الغير عما يريد به بحيلة ، أو إيصال المكروه للمكروه خفية .

والمراد بمكر الذين من قبلهم : إضمارهم السوء لرسولهم .

والمراد بمكر الله - تعالى - هنا : عليه - سبحانه - بما يبتوّه ، وإجباطه لمسكرهم ، وإنجاؤه لرسوله - عليهم الصلاة والسلام - .
أى : وقد مكر المكفار الذين سبقوا قومك - يا محمد - برسولهم ، وحاولوا إيقاع المكروه بهم ، ولم يكن ربك - سبحانه - نصر رسوله لأنه - عز وجل - له المسكر جميعا ، ولا اعتداد بمكر غيره لأنه معلوم له .

وقال الجمل مالم يخصه : وقوله « فله المسكر جميعا » تعليل لمخدوف تقديره ، فلا عبرة بمكرهم ، ولا تأثير له ، لخف هذا اكتفاء بدلالة القصر المستفاد من تعليله بقوله « فله المسكر جميعا » ، أى لا تأثير لمسكرهم أصلا لأنه معلوم لله - تعالى - وتحت قدرته ...

وأثبت لهم المسكر باعتبار الكسب ، وفقاء عنهم باعتبار الخلق ... (١)
وجملة « يعلم ما تكسب كل نفس » بمنزلة التعليل لجملة « فله المكر جميعا » .

أى : هو - سبحانه - له المكر جميعا ، لأنه لا تخفى عليه خافية من أحوال كل نفس وسيجازيها بما تستحقه من خير أو شر .
وقوله : « وسيعلم المكفار من عقبى الدار » تهديد للكافرين بالحق الذى جاءهم به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

أى : وسيعلم الكافرون عندما ينزل بهم العذاب ، لمن تكون العاقبة
الجيدة أمى لهم - كما يزعمون - أم للمؤمنين ؟ لاشك أنها للمؤمنين .

فالجملة السكريمة تحذير للكافرين من التماذى فى كفرهم ، وتبشير للمؤمنين
بأن العاقبة لهم .

وفى قراءة سبعية « وسيعلم الكافر .. » فىكون المراد به جنس الكافر .
ثم ختم - سبحانه - السورة السكريمة بالشهادة للرسول - صلى الله
عليه وسلم - بأنه صادق فى رسالته ، فقال : « ويقول الذين كفروا لست
مرسلا ... »

أى : لست مرسلا من عند الله - تعالى - . وقد حكى - سبحانه - قولهم
الباطل هذا بصيغة الفعل المضارع . للإشارة إلى تكرار هذا القول منهم ،
ولاستحضار أحوالهم العجيبة الدالة على إصرارهم على العناد والجحود .

وقوله « قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب » أمر من
الله - تعالى - لرسوله بأن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم .

والباء الداخلة على اسم الجلالة الذى هو فاعل « كفى » فى المعنى ، مزينة
للتأكيد وقوله « ومن عنده علم الكتاب » معطوف على اسم الجلالة . والمراد
بالموصول وبالكتاب الجنس .

والمعنى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - تكفى شهادة الله بينى وبينكم . فهو
يعلم صدق دعوتى ، ويعلم كذبكم ، ويعلم ذلك - أيضا - كل من كان على علم
بالكتب السماوية السابقة فإنها قد بشرت برسالتي ، وجاءت أوصافى فيها ...
وممن شهد لى بالنبوة ورقة بن نوفل ، فأنتم تعلمون أنه قال لى عندما
أخبرته بما حدث لى فى غار حراء : « هذا هو الناس الغاموس - أى الوحى -
الذى أنزله الله على موسى ... »

وقيل المراد بمن عنده علم الكتاب : المسلمون . وبالكتاب : القرآن .
والأول أرجح لشموله لكل من كان عنده علم بالكتب السماوية السابقة ،
لأن هذا الشمول أكثر دلالة على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما
يبلغه عن ربه .

وبعد : فهذه هي سورة الرعد . وهذا تفسير وسيط لا يأتها ...
نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده .
والحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه وسلم ؟

محمد السيد طنطاوى

المدينة المنورة : ٢٣ من المحرم سنة ١٤٠٢ هـ

الموافق ١٩ من نوفمبر سنة ١٩٨١ م

فهرس إجمالى لتفسير سورة الرعد

الصفحة	الآية المفسرة	رقم الآية
٣	مقدمة	
١٣	ألم تلك آيات الكتاب	١
١٥	الله الذى رفع السموات	٢
١٨	وهو الذى مد الأرض وجعل	٣
٢٠	وفى الأرض قطع متجاورات	٤
٢٢	ولإن تمعجب فمعجب قو لهم	٥
٢٥	ويستعجلونك بالسيئة	٦
٢٨	ويقول الذين كفروا لولا	٧
٢٩	الله يعم ما تحمل كل أنى	٨
٣٢	عالم الغيب والشهادة	٩
٣٣	سواء منكم من أسر القول	١٠
٣٤	له معقبات من بين يديه	١١
٣٤	هو الذى يرىكم أنبرق	١٢
٣٧	ويسمع الرعد بحمده	١٣
٣٩	له دعوة الحق	١٤
٤٢	ولله يسجد من فى السموات	١٥
٤٥	قل من رب السموات والأرض	١٦
٤٨	أنزل من السماء ماء فسال	١٧
٥٢	للذين استجابوا لربهم الحسنى	١٨
٥٤	أفمن يعلم أن ما أنزل	١٩
٥٥	الذين يوفون بعهد الله	٢٠
٥٦	والذين يصلون ما أمر الله	٢١
٥٧	والذين صبروا ابتغاء	٢٢

الصفحة	الآية المفصلة	رقم الآية
٥٨	جنات عدن يدخلونها	٢٣
٥٩	سلام عليكم بما صبرتم	٢٤
٦٠	والذين ينقضون عهد الله	٢٥
٦١	الله يسط الرزق لمن يشاء	٢٦
٦٤	ويقول الذين كفروا	٢٧
٦٥	الذين آمنوا وقطعتم	٢٨
٦٦	الذين آمنوا وعملوا	٢٩
٦٧	كذلك أرسلناك في أمة	٣٠
٦٩	ولو أن قرآنا سيرت	٣١
٧٤	ولقد استهزى برسلى	٣٢
٧٦	أفمن هو قائم	٣٣
٧٧	لهم عذاب فى الحياة الدنيا	٣٤
٨٠	مثل الجنة التى وعد	٣٥
٨٢	والذين آتيناكم الكتاب	٣٦
٨٣	وكذلك أنزلناه حكما	٣٧
٨٥	ولقد أرسلنا رسلا من قبلك	٣٨
٨٧	يمحو الله ما يشاء ويثبت	٣٩
٩٠	ولما نرينك بعض الذى	٤٠
٩١	أولم يروا أنا نأتى الأرض	٤١
٩٣	وقد مكر الدين من قبلهم	٤٢
٩٤	ويقول الذين كفروا لست	٤٣